الفصل الثالث

الآثار الثقافية

شفّت طائفة من أشعار الأندلسيين عن الجانب الثقافي الذي شهدته الأندلس على امتداد تاريخها الطويل ، وأبانت عن الموقف الأندلسي من ألوان هذه الثقافة وضروبها ، وأطلّت هذه الآثار الثقافية بمظهر الإشارات والتوريات حيناً ، أو النظم التعليمي حيناً آخر ، وشملت هذه الآثار مختلف جوانب العلوم الأندلسية آنذاك كالتاريخ ، والفقه ، وعلم الحديث ، واللغة ، والأمثال ، والفلك ، والطب ، والرياضيات ، وغيرها .

أقرّ الأندلسيون بأن تبرز آثار العلوم في شعر شعرائهم في معظم الأحيان ، ونوّهوا باستلهام الشاعر المادة العلمية للثقافة الأندلسية التي عرفت أزهى عصورها في الأندلس في عصور التألق ، والسمو الفكري . وعلى هذا استحسنوا استقاء الشاعر من علوم التاريخ ، والخبر ، والنحو ، واللغة[1] . لكنهم تحفظوا

---

(١) كان الموقف النقدي المشرقي المحافظ يستهجن إدخال الشاعر ألفاظ بعض العلوم ومعانيها في الشعر ، ولا سيما الفلسفة ، والمنطق ، والكلام ، ويتحفظ من الإكثار من استخدام ألفاظ علوم أخرى كالنحو ، والخبر والكلام ، والهندسة ، وألفاظ أهل المهن كما هو معروف من انتقاد ابن سنان الخفاجي جنوح أبي تمام وأبي الطيب وغيرهما إلى استعمال ألفاظ المتكلمين والنحويين في شعرهم . انظر : سر الفصاحة . صححه وعلق عليه عبد المتعال الصعيدي . مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده . ==

إزاء المادة الثقافية إذا ماخرجت إلى آفاق الغلو والشك ، وعبثت بالمقدسات والعقيدة الدينية كما هو الحال في بعض الآثار الفلكية ، والشيعية ، والفلسفية . وبرزت في أشعار الأندلسيين ذات الصبغة الثقافية مواقف متباينة من هذه العلوم تنبئ عن الاتجاه الشعري للشاعر الأندلسي .

امتاز شعراء أندلسيون كثر بسعة الثقافة التي برزت في أشعارهم ، فكان الشاعر يحيى الغزال ذا ثقافة واسعة ، اشتغل بعلوم كثيرة شملت العقلي ، فضلاً عن النقلي . منها مايدخل في علوم الأوائل . وقد وصفه المقري بعرّاف الأندلس لمعرفته بعلم الفلك والنجوم[1] وتبدت في شعره ظلال من ثقافته تلك ، وإنّ المتدبّر لشعر ابن عبد ربه ليجد أمارات الثقافة العربية الأصيلة جلية بعناصرها المحافظة كالتاريخ ، والفقه ، والنحو ، ومذاهب الفرق الدينية ، والعروض ، كما يستجلي عداءه للتيار المحدث في هجومه على المشتغلين بالفلك والتنجيم . وكذلك كان ابن هانئ أظهر مَنْ ترجم عن مبادئ الثقافة الشيعية المغالية .

== مصر ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م . ص ١٩٥-١٩٩ ، وانظر : رد ابن الأثير عليه ودفاعه عن أبي تمام في المثل السائر ٢/٣٥٤-٣٥٩ .

أما ابن رشيق فاستهجن الاتجاه المجدد الذي أسرف فيه الشاعر في الفلسفة وجرّ الأخبار قائلاً :« والفلسفة وجر الأخبار باب آخر غير الشعر ، فإن وقع فيه شيء منهما فبقدر ، ولا يجب أن يُجعلا نُصْبَ العين فيكونا متكئاً واستراحة ، وإنما الشعر ماأطرب ، وهز النفوس ، وحرك الطباع » العمدة . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة السعادة بمصر . الطبعة الثانية ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م ١/١٢٨ . وكذلك انتقد حازم القرطاجني في المغرب الإسلامي مسلك أبي تمام والمعري وغيرهما في إكثارهم من المعاني المتعلقة بالعلوم كعلم الكلام ، والنحو ، والطب ، وبعض الصنائع . انظر منهاج البلغاء . تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة ، تونس ١٩٦٦م . وذكر دكتور إحسان عباس أن حازماً حاول أن يبعد الشعر عن العلم قدر استطاعته ، وجعل ينبوع الشعر حركات النفس ، ومصبه النفوس الإنسانية في مدى تقبلها ، أو إعراضها . انظر : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ٥٥٣ .

(١) انظر : نفح الطيب ٢/٢٥٤ .

وكذلك كان ابن دراج من أهم الشعراء الأندلسيين الذين تحققوا بثقافة غنية برزت في شعرهم . فها هو ذا يزهو بالجانب العلمي في شعره الذي يقدّمه إلى ممدوحه البصير . يقول :

هل أنتَ مدرُكُ آمالي فمُحْييها ومُبْدلي في الورى من ذلّتي تيها
بلحظةٍ تقتضي منّي مكارمُها هديةً لكَ حازَ السبقَ مهديها
جواهراً من بحورِ العلمِ ليس لها إلا استماعَكها قدرٌ يساويها (١)

ويقول في علمه ، وتقديره لحرمته :

حفظاً لعلمٍ حازَ صدري حفظه ألاّ أخيسَ بحرمةِ الآدابِ (٢)

والحق أن ابن دراج امتاز بالصياغة الفنية المعجبة للمادة العلمية ، والقدرة على صهرها في حرارة المعاناة وعمق التجربة . يقول ابن شهيد مبرزاً هذه الميزة : ((والفرق بين أبي عمر (ابن دراج) وغيره أنّ أبا عمر مطبوع النظام ، شديد أسر الكلام ، ثم زاد بما في أشعاره من الدليل على العلم بالخبر ، واللغة ، والنسب ، وما تراه من حوكه للكلام ، وملكه لأحرار الألفاظ . .))(٣) ، وينوّه ناقد آخر بهذا الجانب الثقافي في شعر ابن دراج قائلاً : ((ومن تصفح أشعاره دلّته على أنه عالم بالأخبار ، والأنساب ، والآثار ، والأحساب))(٤). وتتبدى لدى ابن حزم الأندلسي آثار ثقافته الفقهية في اعتماد المذهب الظاهري ، وبروز أصوله في شعره . وكذلك عني ابن زيدون بإبراز ثقافته التاريخية ، والأدبية ، والدينية ، واللغوية . ولا سيما في مدائحه . ووصف ابن بسام أبا طالب عبد الجبار الذي كان يعرف بالمتنبي بأنه ((أبرع أهل وقته أدباً ، وأعجبهم مذهباً ، وأكثرهم تفنناً في العلوم... وله أرجوزة في التاريخ أغرب فيها ،

---

(١) الديوان ص ٩ .
(٢) ديوانه ص ١٦ .
(٣) الذخيرة ١/١ : ٦١ .
(٤) ابن شرف القيرواني . أعلام الكلام . عني بتصحيحه ، وضبط ألفاظه عبد العزيز أمين الخانجي ص ٢٦ .

وأعرب بها عن لطف محله من الفهم ، ورسوخ قدمه في مطالعة أنواع العلم))[1]. وتجلت في شعر ابن الحداد ضروب من المعارف الكثيرة التي تحقق بها واشتغل ، والتي تشمل علوم التيار القديم والمحدث ؛ إذ عني إلى جانب النحو ، والتاريخ بالفلسفة ، والفلك ، والرياضة . لكنه كان في أحيان كثيرة يجتلب هذه المادة العلمية ، ويقحم الجانب المتعمق فيها الذي لاتتأتى معرفته إلا للمتخصص بغية الإدلال بغزارة علمه ، وتبحره في ضروب العلوم الكثيرة . يقول ابن الحداد في قيمة العلم ، وأثره في النفس الإنسانية مشيراً إلى توخي علم الحقائق :

والنفسُ عادمةُ الكمالِ وإنما بالبحثِ عن علمِ الحقائقِ تكملُ
والمرءُ مثلُ النّصْلِ في إصدائِه والجهلُ يُصدي والتفهمُ يصقلُ [2]

ويقول ابن بسام في هذه السمة في شعر الشاعر : ((وضح في طريق المعارف وضوح الصبح المتهلل،وضرب فيها بقدح ابن مُقْبل إلى جلالة مقطع، وأصالة منزع . ترى العلم ينم على أشعاره ، ويتبين في منازعه وآثاره))[3] . وعني الأعمى التطيلي في شعره بالإشارات الثقافية ، ولا سيما الأدبية ، فأكثر من الاقتباس من أشعار المشارقة كزهير ، والمتنبي ، والمعري وغيرهم ، ومن حلّ أبياتهم ، واستعارة تعبيراتهم ، واعتمد الاتكاء على الأمثال القديمة .

أما لسان الدين بن الخطيب الذي جمع بشخصيته الغنية خلاصة الفكر الأندلسي فكان الجانب الثقافي طاغياً في شعره ؛ إذ ((لاتكاد تخلو قصيدة ، أو مقطوعة من استغلال معلوماته الثقافية المختلفة فيها من فقه ، ونحو ، ومنطق ، وفلك...))[4] .

---

(١) الذخيرة ٢/١ : ٩١٦ .
(٢) ديوانه ص ٢٤٤ . (٣) الذخيرة ٢/١ : ٦٩٢ .
(٤) مفتاح . دكتور محمد . مقدمة ديوان لسان الدين بن الخطيب ٥٠/١ .

١- التاريخ :

وهو من أكثر العلوم بروزاً في أشعار الأندلسيين مسايرين في ذلك الموقف النقدي العام من حضّ على توفر الشاعر على حفظ الأخبار ، والتحقق بعلم التاريخ[١] . وتوزع الشعر ذو الصبغة التاريخية مابين نظم تعليمي ، وإشارات تضمنتها معاني الشعر المختلفة بغية تعميق المعنى وجلائه . فمن نماذج النظم التاريخي ، وهو مظهر من مظاهر المذهب الجديد في الشعر ماسقناه سابقاً من أرجوزة الشاعر الغزال في فتح الأندلس[٢] ، وأرجوزة تمام بن عامر الثقفي في افتتاح الأندلس وتسمية ولاتها وخلفائها وحروبها[٣] ، وأرجوزة ابن عبد ربه في غزوات عبد الرحمن الناصر[٤]. وذكر ابن بسام أن الأعمى التطيلي ((نظم أخبار الأمم في لبة القريض ، وأسمع فيه ماهو أطرب من نظم معبد والغريض))[٥].

أما الإشارات التاريخية فأطلت في معاني الشعر بغية تحقيق المماثلة بين الموقف الشعوري أو الفكري الذي يعبر عنه الشاعر ، والموقف التاريخي الذي يتمثل به ، أو بقصد تعميق المعنى المعبر عنه بإيراد الحدث التاريخي الذي يفصح عن هذا المعنى بجلاء . وشملت هذه الإشارات مختلف مراحل التاريخ العربي منذ الجاهلية ، فأحداث التاريخ الإسلامي ، والتاريخ العام . وكان الشاعر يسرف أحياناً في سرد هذه الأحداث التاريخية للإدلال بسعة الثقافة .

واستخدم الشاعر شطراً عظيماً من هذه الإشارات التاريخية في سياق المديح لمنح ممدوحه مزايا عالية من القوة والمجد ؛ إذ يقيسه بأعلام التاريخ ، ويقرن مواقفه بالأحداث التاريخية الساطعة . وقد كان ابن دراج من أكثر الشعراء

---

(١) يقول ابن رشيق متحدثاً عن الشاعر : ((وليأخذ نفسه بحفظ الشعر والخبر ، ومعرفة النسب وأيام العرب ليستعمل ذلك فيما يريده من ذكر الآثار وضرب الأمثال ، وليعلق بنَفسه بعض أنفاسهم ، ويقوى بقوة طباعهم) . العمدة ١٩٧/١ .

(٢) انظر : نفح الطيب ٢٨٢/١ . (٣) انظر : ابن الأبار . الحلة السيراء ١٤٤/١ .

(٤) انظر : البيان المغرب ٣٣٦/١ . (٥) الذخيرة ٢/٢ : ٧٢٨ .

الأندلسيين ولوعاً بالإشارات التاريخية ، والاتكاء على أحداث التاريخ في تعزيز معانيه وتعميقها ، ومنحها آفاقاً رحبة عن طريق المبالغة التي تحققها المماثلة بين المعنى والحدث التاريخي . فضلاً عن إبراز علمه التاريخي الواسع . وهذا ماحمل ابن شهيد على إفراده بميزة الثقافة التاريخية التي تعليه على نظرائه . فمن نماذج هذا الجانب الثقافي لديه استلهامه سيرة النبي الكريم ﷺ مع يهود المدينة في سياق ثنائه على صنيع المنذر بن يحيى في أحد الثوار الخارجين عليه . يقول :

فأوسعتَه حكمَ النّضير وقد حكى قريظةَ منه غلُّه وجرائمُه[1]

ويستشهد ابن دراج بوقائع التاريخ الإسلامي في مديحه لمنذر بن يحيى وقومه ، فينوّه بأمجادهم في الجاهلية ، ويتغنى بحسن بلائهم في وقائع الإسلام الخالدة . يقول :

لهم مدى السّبْق في بدرٍ وفي أحدٍ وآلِ حربٍ وحزبَيْ قيسِ عيلانا
وفي «تبوك» و«أوطاسٍ» و«مصطلقٍ» ومن عصى اللهَ من أبناءِ عدنانا
ويومَ صفّين لم تخذلْ سيوفُكمُ آلَ الرسولِ به يآلَ همدانا[2]

وكذلك يعلي ابن زيدون ممدوحه على بعض أقطاب التاريخ في المزايا والفضل . يقول مخاطباً هذا الممدوح :

دعْ ذكرَ صخرٍ وابنَ صخرٍ قبلَنا أنتَ الحليمُ وغيرُكَ المتحلِّمُ[3]

---

(١) ديوانه ص ٢٠٠ يريد ابن دراج أن المنذر بن يحيى حكم في هذا الثائر حكم النبي عليه الصلاة والسلام في بني النضير . أي بالإجلاء دون القتل ، مع أن جرائمه وغدره كانت كفيلة بأن توقع عليه حكم الرسول الكريم في بني قريظة بالقتل . انظر : هامش رقم (١) من الصفحة ٢٠٠ .

(٢) ديوانه ص ١٣٤-١٣٦ .

(٣) ديوانه ص ٣١٧ . وصخر : هو الأحنف بن قيس . سيد من سادات بني تميم . وابن صخر : معاوية بن أبي سفيان وكان يُضرب بهما المثل في الحلم .

وينقل هذا الشاعر ممدوحه إلى مغاني البطولة الفائقة في الجاهلية سعياً إلى تمجيد بسالته ونبله . يقول ابن الملح :

واحطمْ عداكَ مكايداً ومكابداً واثأرْ بسيفكَ للقنا المتحطِّمِ
واقنعْ بعذرٍ من قناكَ فإنّه نبأٌ لرمحِ ربيعةَ بنِ مكدّمِ
بيديك صعدتُهُ وكلُّ قبيلةٍ جشمٌ وكلُّ الأرض وادي الأخرمِ[1]

وتملّح الشاعر الأندلسي بالمادة التاريخية في حديث الغزل والحب . فهذا ابن الزقاق يومئ إلى سطوة نظرات المحبوبة إيماء لطيفاً . يقول :

عدنيّةٌ وهي منْ عدنانَ إن نُسِبَتْ إذا رَمَتْ فحسبْنَا قومَها ثُعَلا[2]

ويومئ لسان الدين بن الخطيب إلى خصيصة كان يمتاز بها أحد أعلام التاريخ القديم مورّياً بها عن إحدى مناقبه الشخصية . يقول :

تعجّلْتُ وخْطَ الشيبِ في زمنِ الصبا لخوضي غمارَ الهمِّ في طلبِ المجدِ
فمهما رأيتمْ شيبةً فوق مفرقي فلا تنكرُوها إنّها شيبةُ الحمدِ[3]

---

(١) الذخيرة ١/٢ : ٤٦٠ . في يوم الكديد بارز ربيعة بن مكدَّم عدداً من الفرسان تواتروا لمبارزته ، وحمى الظعينة ، فلما ذهب دريد بن الصمة ليرى ماحدث وجد ربيعة حديث السن ، فأعطاه رمحاً ، وعاد عنه دريد ، وادّعى لأصحابه أن ربيعة انتزع منه الرمح . وفي ذلك يقول ربيعة :

إن كان ينفعك اليقين فسائلي عني الظعينة يوم وادي الأخرم هامش رقم (٢) نقلاً عن العقد الفريد ١٧١/٥

(٢) ديوانه ص ٢٤١ . وثعل قبيلة مشهورة برمي السهام وفيها يقول امرؤ القيس :

رب رام من بني ثعل متلح كفيه من قتره

هامش رقم (١٥) .

(٣) ديوانه ٣٣١/١ . ويشير الشاعر هنا إلى ماكان يقال لعبد المطلب بن هاشم « شيبة الحمد» لنور وجهه ، وذلك أنه كانت في ذؤابته شعرة بيضاء حين وُلد ، فسمي شيبة الحمد . انظر : الثعالبي ، ثمار القلوب . تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . دار نهضة مصر للطبع والنشر ، ١٩٦٥م ، ص ٩٧ .

وأفصح بعض الشعراء عن ثقافة تاريخية معمقة في إشارات إلى أشخاص ، وقبائل ، ووقائع ، ومواضع لايعرفها إلا من تحقق بعلم تاريخي واسع ، وهي تستدعي من قارئها ثقافة مماثلة لفهم معاني الشاعر . وقد أكثر ابن دراج من هذه الإشارات[1] ، كقوله في معاناة الرحيل عن مغاني الهوى ليلاً :

جسوماً أقلَّتْها الريـاحُ قلـم تَـدَعْ لـــهنَّ مـــن الأرواحِ إلا أقلّهـــا

نجائـــبُ وصّـــاها الجـــديلُ وشـــدقمٌ بألاَّ تـــملّ الليلَ حـــتى يـــملّـــها

فتخلـــقُ بالإرقـــالِ ثـــوبَ شـــبابِه وتتركُهُ بـــالأفقِ أشـــيبَ أجْلَهَـــا [2]

واتسمت بعض هذه الإشارات بالتكلف والافتعال لإبراز سعة العلم . نحو هذا الإقحام للمادة التاريخية في قول ابن الحداد في المعتصم الصمادحي :

ولولاهُ كانتْ كالنسـيئ وخـاطري لـها كفقـيم للمحـرِّمِ ناسـئُ [3]

فهو يقول لولا هذا الأمير لتأخرت عن نظم المدائح كما أخّرت فقيم ، وهي بطن من كنانة ، شهر محرم فأحلّته ، وحرّمت مكانه شهر صفر . وجلي أنه إقحام وسم الصورة الشعرية بالبرود والسماجة .

وكان الشاعر في بعض الأحيان يسرف في استلهام المادة التاريخية في معرض التعبير عن معنى بعينه ، فيلجأ إلى حشد أسماء الشخصيات ، وسرد مواقفها البارزة ، فيقع في الإملال والتكلف رامياً من وراء هذا كله إلى إبراز علمه ، وتبحر معارفه التاريخية . وقد سلك ابن دراج هذا النهج في بعض

---

(١) انظر : على سبيل المثال ديوانه ص ٦٨، ١٢٢، ١٤٦، ٣٠٣، ٣٥٩، ٣٧٣، ٣٨٢.

(٢) ديوانه ص ٢٢٣ . والجديل وشدقم : اسما فحلين منجبين كانا للنعمان بن المنذر تنسب إليهما إبل جيدة . والإرقال : ضرب من العدو . والأجله : مشتق من الجلَه . وهو ذهاب الشعر من مقدم الرأس ، وهو ابتداء الصلع .

(٣) ديوانه ص ١٤٩ . نسأ الشيء وأنسأه . أخّره . والنسيئ : شهر كانت العرب تؤخره في الجاهلية ، فإذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلُّوه ، وحرموا مكانه شهراً آخر أطلق عليه اسم النسيئ . هامش رقم ٢٩ من ص ١٤٩ .

مدائحه في سياق التنويه بشأن الممدوح وقومه[1] . يقول في حديث النعيم الذي بات يتمرغ فيه في كنف المنذر بن يحيى صاحب سرقسطة بعد عهد الحرمان والذل مسهباً في هذه الإشارات التاريخية :

فلئن تركت الليل فوقي داجياً ... فلقد لقيتُ الصبح بعدك أزهرا
ولقد وردتُ مياهَ مأربَ حُفّلاً ... وأسمت خيلي وسط جنة عبقرا
ونظمتُ للغيد الحسان قلائداً ... من تاج كسرى ذي البهاء وقيصرا
وأصبتُ في سبأ مورّثَ ملكه ... يسبي الملوك ولا يدبُّ لها الضَّرا
فكأنما تابعتُ تُبّعَ رافعاً ... أعلامَه ملكاً يدينُ له الورى
والحارث الجفنيَّ ممنوعَ الحمى ... بالخيلِ والآسادِ مبذولَ القِرى
وحططتُ رحلي بين نارَيْ حاتمٍ ... أيام يقري مُوسراً أو مُعْسرا [2]

وعلى هذا النحو يسرد ابن زيدون أسماء ملوك التاريخ القديم وسادته الذين ينتمي إليهم ممدوحه . يقول :

ياهل أتى منْ ظنّ بي فظنونهُ ... شتّى ترجَّح بينها الأضدادُ
أنّي رأيتُ المنذرين كليهما ... في كونِ ملكٍ لم يحلْه فسادُ [3]
وبصرتُ بالبردين إرثَ محرّقٍ ... لم يخلقا إذ تخلُقُ الأبرادُ [4]

---

(١) انظر : ديوانه ص ١٠٩ .

(٢) ديوانه ص ١٢٨، ١٢٩ .

(٣) ديوانه ص ٤٥٣-٤٥٥ . المنذران : هما المنذر بن امرئ القيس ، ويسمى المنذر الأكبر ابن ماء السماء . وابنه المنذر الأصغر . والمشهور أن بني عباد ينتسبون إلى لخم ملوك الحيرة . انظر : هامش رقم (١) ص٤٥٤ .

(٤) محرق : هو عمرو بن المنذر المسمى بعمرو بن هند ، وسمي محرقاً ، لأنه حرّق نخل اليمامة أو حرّق مئة من بني تميم في ثأر أخ له من الرضاع ، وقد قتله عمرو ابن كلثوم حمية لأمه . والبردان : عرضهما المنذر الأكبر على وفود العرب ليأخذهما أعزهم فقام عامر بن أحيمر فأخذهما وارتداهما . انظر : هامش رقم (٢) ص٤٥٤ .

وعرفتُ من ذي الطوقِ عمرو ثــأره لجذيمــةَ الوضــاحِ حــين يُكــادُ[1]

وأتــى بي النعمــانُ يــومَ نعيمِــهِ نجــمٌ تلقّــى ســعدهُ المــيلادُ [2]

وسلك لسان الدين بن الخطيب السبيل ذاتها ، فاستقصى عدداً من أسماء الأشخاص ، والوقائع ، والقبائل ، والمواضع التاريخية الجاهلية العربية في سياق مديح الممدوح ، وإبراز فضائله ومزاياه[3] .

وعني الشاعر الأندلسي بحشد المادة التاريخية في موضوع رثاء الدول والمدن المنهارة ؛ إذ كان الشاعر في غمرة التعبير عن فجيعته الحالية يقرنها بفجائع التاريخ الغابرة ، فيسرد أسماء عظماء الأشخاص والدول التي قهرها الموت سعياً إلى سوق العبرة والتأسي . ولقد أساء الإسراف في حشد المادة التاريخية إلى توقد العاطفة ، ووسم الشعر بالتكلف والبرود حين اتجهت غاية الشاعر إلى إبراز غنى ثقافته ، وسعة علمه كما صنع ابن عبدون في قصيدتين . إحداهما قصيدته الشهيرة في رثاء بني الأفطس حكام بطليوس[4] ، وبرز هذا

---

(١) جذيمة الوضاح : هو جذيمة بن مالك الوضاح ، وينعت بالأبرش . ملك الحيرة ، ثم قصد في جيش كثيف إمارة عمرو بن الظرب العامري فقتله ، ولما تولت الزبّاء الحكم مكان أبيها عمرو دبرت حيلة ، قتلت بها جذيمة الأبرش ، فانتقم له ابن أخته عمرو بن عدي الذي ورث ملك خاله ، وأسس أسرة اللخميين بالحيرة . وهو الملقب بذي الطوق ، لأن أمه كانت تزينه ، وتضع في عنقه طوقاً . انظر : هامش رقم (٣) ص٤٥٤ .

(٢) كان للمنذر بن ماء السماء نديمان قتلهما في سكره ، ثم ندم على قتلهما ، ثم بنى لهما قبرين يُسمّيان الغَرِيّيْن ، فكان يخرج إليهما يومين في العام . الأول يسمى يوم النعيم يعطي فيه أول من يطلع فيه مئة من الإبل ، والثاني يسمى يوم البؤس يقتل فيه أول من يفد عليه ، ويقال إنه قتل في هذا اليوم عبيد بن الأبرص الشاعر الجاهلي المشهور . وتنسب هذه القصة إلى النعمان بن المنذر . والمعنى : لقد ساقني حظي الحسن إلى الوفود على هذا الملك العظيم كما كان المحظوظون يفدون على جده النعمان في يوم النعيم . هامش رقم (١) ص ٤٥٥ .

(٣) انظر : ديوانه ٣٦٩/١، ٣٧٠ .

(٤) انظر : ديوانه ، تحقيق سليم التنير ص ١٣٩-١٥٢ .

المسلك لدى الأعمى التطيلي[1]، وأبي البقاء الرندي[2]، ولسان الدين ابن الخطيب . يقول لسان الدين في تقلب الأيام بعدد من الأقوام ، والملوك ، والبقاع :

لعمرك مايصفو الزمانُ لوارد ... وإنْ طالَ ماأحمى لظى الحربِ صفّان

أما تركَتْ كسرى كسيراً صروفُهُ ... ولانَ على صولاتِهِ ملكُ اللانِ

ومَدّ إلى سيفٍ أكفّ اعتدائه ... فأخرجه بالرّغم من غمدِ غمدان

وهل دافعَتْ خطباً توابعُ تُبّعٍ ... وهل درأتْ كرباً سياسةُ ساسانِ[3]

واكتسبت هذه الإشارات التاريخية أبعاداً شعورية بعيدة الغور حين كان الشاعر يستلهمها في التعبير عن بعض المعاناة ، أو المواقف ، والأحداث . فقد جنح ابن دراج إلى توظيف شخوص التاريخ وأحداثه في وصف قضاء الممدوح على الفتن ، ونشره العدل ، يقول :

وأنّس شملٌ بالتفرقِ موحشٌ ... وحنّ خليطٌ بالصبابةِ حنّانُ

وقد أمنَ التثريبَ إخوةُ يوسفٍ ... وأدركَهُمْ للهِ عفوٌ وغفرانُ

وأعقب طول الحربِ أبناء قيلة ... زكاة ورُحْماً فيه أمنٌ وإيمانُ

وحنّت لداعي الصلح بكرٌ وتغلبٌ ... وشفّعت الأرحامَ عبسٌ وذبيانُ [4]

وهاهو ذا يصف تجوابه في فلوات القفر والهول يعاني آلام أبنائه ،وتعطشهم إلى ماء النعيم ، يقول :

ليالي أمسي صدى قفرةٍ ... أجولُ الفلا بين غولٍ وهامَهْ

---

(١) انظر : ديوانه ٢٢٤، ٢٢٥ .

(٢) انظر : نفح الطيب ٤/٤٨٧-٤٨٨ .

(٣) ديوانه : صنعه وحقّقه وقدّم له : الدكتور محمد مفتاح . المجلد الثاني . ص٦٢٦ ، واللان : بلاد في طرف أرمينية

(٤) ديوانه ٥٨، ٥٩ . ويقصد بأبناء قيلة الأوس والخزرج قبيلتي الأنصار . وقيلة بنت كاهل : هي أمهم التي يلتقي فيها نسبهما . هامش رقم (٦) من ص ٥٨ .

معنّـــى بـــأفلاذِ قلـــبٍ حـــوامٍ تُباري إلى كـــلِّ مـــاءٍ ســـمامه[1]

وكلُّهُـــمُ نَمِـــريٌّ وإنّـــي لكلِّ هنالك «كعبُ بـن مامَـهْ»[2]

ويلوح أن تقصير الشاعر في علم التاريخ كان يلقى استهجان الناقد الأندلسي . وذلك حين يعتمد هذا الشاعر الروايات الضعيفة في إشاراته التاريخية نظراً لعدم تحققه في هذا العلم . ولذا نقض ابن بسام على الشاعر حسان بن المصيصي إشاراته إلى جبن حسان بن ثابت ، وردّ حجج من نسب إليه ذلك من الرواة محتجًّا بحوادث وروايات أخرى تنفي عنه هذا المطعن . يقول معلقاً على قول الشاعر الأندلسي :

لعلّ عذري في ذا الغزوِ قـدْ عرفَـتْ أســرارهُ بلســانٍ صـادقٍ مـذلِ

وما الحروبُ ومثلـي أن يشـاهَدها وإنّما أنا حسـانٌ وأنـتَ علـي[3]

((قال ابن بسام : وأظن حساناً هذا لم يكن عنده علم بالسير ، ولا تصرُّف بعلم الخبر ، وقد رأيت جماعة من أهل الأدب ينسبون حسان بن ثابت رحمه الله إلى الجبن ، ويخرجونه من أهل الضرب والطعن يحتجون في ذلك بقعوده عن رسول الله ﷺ في مغازيه وسراياه ، وينشدون له في ذلك شعراً أظنهم نحلوه إياه... وذهب عليهم أن حساناً رحمه الله كان قد أصيب في بعض حروبهم في الجاهلية ، فقطع أكحله... ومن أدل شيء على ذلك أنه هاجى في الجاهلية والإسلام أكثر من ثمانين شاعراً لم يصفه أحد بالجبن ، ولا عيّره

---

(١) السمام : ضرب من الطير نحو السماني . هامش رقم (٣) من ص ١١٧ .

(٢) ديوانه ١١٧، ١١٨ . ويشير ابن دراج هنا إلى مايذكر عن كعب بن مامه الإيادي أحد أجواد العرب المشهورين من إيثاره رفيقه النمري بالماء حتى مات عطشاً ونجا النمري . هامش رقم (١١) ص ١١٨ ، وانظر : ابن عبد ربه . كتاب العقد الفريد : شرحه ، وضبطه ، وصححه ، وعنون موضوعاته ، ورتب فهارسه أحمد أمين ، وأحمد الزين ، وإبراهيم الأبياري . ط ٣ ـ القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . ١٩٦٥م ، ص ٢٩٣/١ .

(٣) الذخيرة ١/٢ : ٤٤٠ .

به... ولحسان أيام مشهورة ، ومواطن في الحروب مذكورة ، وكان ممن له كنيتان في السلم والحرب كما كان الأبطال تفعل في عهده . . وقد أولع ابن المصيصي بهذا المعنى فأعاده وأبداه ، وألحمه وأسداه ، وأعجبه ماتفق له منه حتى أخرجه إلى ماكان في مندوحةٍ عنه))[1] .

٢- الفقه :

برزت الثقافة الفقهية في شعر الأندلسيين على نحو جلي ، ولا سيما في شعر الشعراء الذين ألموا بثقافة شاملة ، وكان بعضهم فقيهاً . فضلاً عن كونه شاعراً ، فتملحوا بذكر المصطلحات الفقهية في معانيهم ، و ورَّوا بأسماء مصنفات الفقه وعلمائه تظرفاً . ولا يخرج عموم هذه الإشارات عن إبراز الثقافة ، والإدلال بسعة العلم . يقول ابن عبد ربه في معنى إخلاصه في الحب مستخدماً المصطلح الفقهي :

وما بعتُ الهوى بيعاً بشرطٍ ... ولا استثنيتُ فيه بالخيارِ [2]

ويحتكم الفقيه ابن حزم إلى أصول مذهبه الظاهري في شؤون الحب ، يقول :

وذي عذلٍ فيمَنْ سباني حسنُهُ ... يطيلُ ملامي في الهوى ويقولُ
أفي حُسن وجهٍ لاحَ لم تر غيرَهُ ... ولم تدر كيف الحسنُ أنتَ قتيلُ
فقلتُ له أسرفْتَ في اللومِ ظالماً ... وعندي ردٌّ لو أردت طويلُ
ألم ترَ أنّي ظاهريٌّ وأنّني ... على مابدا حتى يقومَ دليلُ [3]

---

(١) الذخيرة ١/٢ : ٤٤٠، ٤٤١ .

(٢) ديوانه ص ٩٥ ، استثنيت : من الثنيا وهو مصطلح فقهي يعني أن يستثنى من الشيء المبيع شيء مجهول ، فيفسد البيع وهو محرم من أجل ذلك .

(٣) ديوانه . جمع وتحقيق ودراسة دكتور صبحي رشاد عبد الكريم ص ٩٧ .

وتجلو عناصر الثقافة الفقهية لدى الفقيه الزاهد أبي إسحاق الإلبيري مواقفه البَرِمَةَ بالناس والمجتمع . يقول في الأصدقاء :

فوجدتُ إخوانَ الصفاءِ بزعمهم ... يلقاك أمحضُهُم بعرضٍ سابري

ولربما قد شذّ منهم نادرٌ ... وأصولُنا أنْ لا قياسَ بنادرِ (١)

وبرزت هذه الإيماءات الفقهية لدى لسان الدين بن الخطيب الذي تراوحت إشاراته بين الأصول الفقهية العامة ، والأحكام العميقة التي تنم على تبحر في العلم الفقهي . فمن إشاراته العامة اقتباسه أحكام الزكاة ، والناسخ والمنسوخ في حديث الحب والوجد . يقول :

وما حصلتْ نفسي عليها بطائلٍ ... ولا ظفرتْ كفّي ببعضِ طلابِ

نصيبي منها حسرةٌ كونها مضَتْ ... بغيرِ زكاةٍ وهي مثلُ نصابِ(٢)

نسختُ بما قد خطّه سنَّة الهوى ... وكم سنةٍ منسوخةٍ بكتابِ(٣)

ومن إشاراته ذات العمق الفقهي قوله في سياق المديح :

وإذْ قيل أرضُ اللهِ إرثُ عبادِهِ ... بموجبِ تقوى أنتَ أقربُ عاصبِ(٤)

ومن الشعر الذي يستلهم مسائل الفقه وأبوابه ماجنح إليه الشاعر البسطي حين عرّض بالأحكام الفقهية لبعض القضاة ، وتهكم ببعض فتاواهم مبرزاً

---

(١) ديوانه . تحقيق : دكتور محمد رضوان الداية ص ٧٦ . السابري : ثوب رقيق جيد . ومنه قيل عرض سابري لأنه يُرغب فيه بأدنى عرض .

(٢) النصاب من المال : القدر الذي تجب فيه الزكاة إذا بلغه .

(٣) ديوانه ١/١٥٥ فيه إشارة فقهية تعني أن الكتاب أي القرآن الكريم ينسخ السنة .

(٤) ديوانه ١/١١٤ ، وعصبة الرجل : بنوه وقرابته لأبيه . وفي الفرائض فكل من لم تكن له فريضة مسماة فهو عصبة ، إن بقي شيء بعد الفرائض أخذ . وقد استعار ابن الخطيب هذا المعنى الفقهي . والإشارة إلى الآية (١٥) من سورة الأنبياء . انظر : هامش رقم (٧٥) .

تمكنه من علم الفقه ومسائله[1]. من ذلك قوله مسفّهاً حكماً للقاضي ابن الأحول الضبي في باب البيوع :

قالتْ وقدْ ملكتْ بلا عوضٍ قلبي أترجو ردَّهُ منّي
قلتُ البيوعُ وإن مكايسةً رُدّتْ لدى الضبيِّ بالغبن [2]

ودخلت هذه المادة الفقهية باب التظرف حين كان الشاعر يورّي بأسماء أعلامها ومصنفاتها على سبيل التفكه اللطيف . فهذا لسان الدين بن الخطيب يتملح بأسماء كبار الفقهاء المالكية ذوي الشأن العظيم في بيئة الأندلس الفكرية . يقول :

ولمّا علاني الشيبُ قال صواحبي لانبتغي خِلاً يُصير أشهب
فصبغتُهُ خوفَ الفراقِ فقلنَ لي هذي روايةُ «أصبغٍ» عن «أشهبْ» [3]

وهاهو ذا أيضاً يشير إلى مؤلّف في الفقه الظاهري ، فضلاً عن كتاب في علم الحديث في سياق غزله قائلاً :

وظبي لأوضاع الجمالِ مدرِّسٍ عليمٍ بأسرار المحاسنِ ماهر
أرى جيدَه نصّ المحلّى وقرَّرتْ ثناياهُ ماضمّتْ «صحاحُ الجواهر» [4]

---

(١) انظر : نماذج من تعريضه بالقاضي ابن الأحول ، وبقاض آخر هو ابن المفضل قاضي بسطة وبعض أحكامهما في ابن شريفة . دكتور محمد البسطي . آخر شعراء الأندلس . الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر ـ دار الغرب الإسلامي ـ بيروت . لبنان . ط ١ ، ١٩٨٥م ، ص ١٨٩-١٩٣و ١٩٤، ١٩٥ .

(٢) ابن شريفة . دكتور محمد . البسطي آخر شعراء الأندلس ص ١٩١ .

(٣) ديوانه ١٦٣/١ . وأشهب القيسي بن عبد العزيز بن داود القيسي العامري الجعدي فقيه الديار المصرية في عصره ، وكان صاحب الإمام مالك . توفي سنة ٢٠٤هـ . أما أصبغ بن فرج فتوفي سنة ٢٢٥هـ فقيه من كبار المالكية في مصر . هامش رقم٣٣٠ .

(٤) ديوانه ٤٢٦/١ ، ويقصد المحلى لابن حزم ، ويشير إلى كتاب الصحاح للجوهري المتوفى في حدود ٤٠٠هـ

٣- القرآن الكريم :

اقتبس الشاعر الأندلسي آيات القرآن الكريم ونصوصه من قصص ، وأحكام بغية التمثيل للمعنى المراد بالنص القرآني ، أو تعميق هذا المعنى الشعري بسوق نظائر له ، أو بقياسه بالحدث القرآني . وشملت هذه الاقتباسات لمحات من القصة القرآنية ، أو ومضات من تعبيرات الذكر الحكيم ، وأسماء سوره الشريفة . فهذا ابن عبد ربه يستقي أحداث القصة القرآنية إذ يتغنى بنصر الخليفة الناصر في غزوة المنتلون . يقول :

في غزوةٍ مئتا حصنٍ ظفرت بها ... في كلّ حصنٍ غواةٌ للعناجيجِ
ماكان مُلْكُ سليمانٍ ليدركَها ... والمبتني سدّ يأجوجٍ ومأجوجِ[١]

وهذا ابن هانئ يمثّل لحاله مع الممدوح جعفر بن علي بقصة النبي داود عليه السلام . يقول :

هبني كذي المحراب فيكَ ولُوَّمي ... كالخصمِ حين تسوّروا المحرابَا
فأنا المنيبُ وفيه أعظمُ أسوةٍ ... قد خَرّ قبلي راكعاً وأنابَا[٢]

وكذلك يجد ابن دراج في الحدث التاريخي القرآني خيرَ معبّر عن مشاعر الركون إلى ظل الراحة في كنف الممدوح . يقول :

وأنّيَ في أفياءِ ظلّك أشتكي ... شكيّةَ موسى إذْ تولّى إلى الظلِّ[٣]

وقد استلهم الشاعر السميسر مواقف من القصة القرآنية في نظراته النقدية والاجتماعية[٤] . يقول في هجاء أحد البخلاء :

جادَ عنْ بخلٍ عليّ ... تلك في العالم ندرةْ

---

(١) ديوانه ص ٤٦، ٤٧ .

(٢) ديوانه ص ١١٨ .

(٣) ديوانه ص ٤٥ .

(٤) انظر : نماذج من ذلك في السميسر حياته وشعره . الكيلاني دكتور حلمي . مؤتة للبحوث والدراسات ص ١٤١-١٤٣ .

فهـــي كالنـــارِ اعترتْهـــا عصـــر إبـــراهيمَ قـــرَّهْ
جـــادَ نـــزراً فقبلْنَـــا درهـــمُ الســـاقطِ بـــدرَهْ
عجـــبَ النـــاسُ وقـــالوا كيـــف نلـــتَ منـــه ذرَّهْ
هـــل رأيـــتُمْ بعـــدَ موســـى أحـــداً فجّـــرَ صـــخرَهْ[1]

وعلى هذا النحو يشاكل ابن الحداد بين الحدث التاريخي القرآني ، والواقع السياسي معلياً من شأن ممدوحه المقدام . يقول واصفاً غلبة المعتصم ابن صمادح على وادي آش التي استشرى فيها الفساد :

بلادٌ غدَتْ يأجوجُ فيهـا فأفسـدَتْ فكنتَ كذي القرنين والجحفلُ السدُّ[2]

ويستحضر في مقام آخر عناصر القصة القرآنية ، فيقابل بينها وبين عناصر قصة عشقه قائلاً :

وقد هوت بـهوى نفسي مهـا سـبأٍ فهل دَرتْ مُضَرٌ مَـنْ تيّمَـتْ سـبأ
كـأنَّ قلـبي سـليمانٌ وهدهـدُهُ لحظي وبلقيسُ لبنى والهـوى النبـأُ[3]

ويستغل ابن سهل دلالات أسماء الشخصيات القرآنية ، وتعبيراتها لتوفير طاقات إيحائية كبرى لعناصر قصة العشق والغزل هذه . يقول في هذا المحبوب :

لو لـم تكنْ من دمِ العنقـودِ ريقتُـهُ لما اكتسى خدُّهُ القاني أبـا لـهبِ
تبّـتْ يـدا عـاذلي فيـه ووجنتُـه حمّالـةُ الـوردِ لاحمّالـةُ الحطـبِ[4]

أما ابن شرف فيستحضر قصة النبي طالوت متمثلاً في إعلان استئثاره بعطف الممدوح ورضاه . يقول :

إنّي ومجدِك صيَرْتُ الـورى نـهراً وقلـتُ ماقالـه طـالوتُ في النَهَـرِ

---

(١) السميسر حياته وشعره ص ١٣٩ .
(٢) ديوانه ص ١٨٥ .
(٣) ديوانه ص ١٠٩ .
(٤) ديوانه ص ٨١ .

فأنت عنـــدي منـــهُمْ غرفـــةٌ بيـــدي حلّتْ وحُرّم باقي النهر في الزُّبُـــرِ[1]

وهذا ابن خفاجة يورّي بأسماء السور القرآنية في التعبير عن إشراق وجه الممدوح وجوده . يقول :

إذا قرؤوا من وجهِهِ سورةَ الضـــحى تلوا فَتَلَوْا من جودهِ سورةَ الحمـــدِ[2]

واتخذت الإشارة إلى النص القرآني مظهر التعالم والتظرف حين كان الشاعر يشير إلى مراده من السورة القرآنية مكتفياً باسم السورة ، مُدلاً بعلمه ، ومعتمداً على ثقافة القارئ . يقول مرج الكحل الأندلسي :

دخلتم فأفسدتُمْ قلوباً بـــملككـــــم فأنتم على ماجاءَ في سورةِ النّمْـــلِ[3]

وبالعدلِ والإحسانِ لـــــم تتخلقـــوا فلستُمْ على ماجاءَ في سورةِ النّحْلِ[4]

وتجاوز بروزُ الثقافة القرآنية في الشعر حدود الإشارة العـابرة إلى التفصـيل والقص كما صنع الشاعر أبو زيد الفازازي في إحدى دعواته الخلقية إلى الصبر متمثلاً بقصة النبي يوسف عليه السلام :

في شأنِ يوســـفَ إنْ فكّـــرْتَ معتـــبرٌ وهو الدليلُ الـــذي مافيـــه معتـــرضُ

لاقى الشـــدائدَ بالتســـليمِ منتظـــراً لطفَ الإلهِ ولم يظهـــرْ لـــه مضـــضُ

وكم أرادَتْ زليخا صـــرفَ خـــاطرِه إلى هواهـــا ببســـطٍ وهـــو ينقـــبضُ

وآثـــرَ الســـجنَ إرضـــاءً لخالقـــهِ ولم يزلّ به في حظـــرِهِ الـــدَّحضُ[5]

---

(١) الذخيرة ٤/١ : ٢٢٣ .

(٢) ديوانه ص ٣٤٨ .

(٣) جـرار دكتـور صـلاح . مـرج الكحـل الأندلسـي . سـيرته وشـعره . دار البشـير للنشـر والتوزيع . عمان . الأردن . ط ١ . ١٩٩٣م ، ص ١٣٣ . وفي البيـت إشـارة إلى قولـه تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ (النمل:٣٤) .

(٤) في البيت إشارة إلى قوله تعالى ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ (النحل:٧٦) .

(٥) آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي ٧٢، ٧٣ . والدحض : الانزلاق والزلل .

٤- الحديث الشريف :

وكذلك أطلت الإشارات المقتبسة من نصوص الحديث الشريف وعلومه ، فاستلهم الشاعر الأندلسي مادة الحديث النبوي العظيم في معاني شعره المختلفة ، وضمنه نصوصه ، وتملح بذكر مصطلحاته وأسماء علمائه مبرزاً ثقافته في هذا العلم . يقول ابن الحداد مستحضراً الحديث الشريف ((حفّت الجنة بالمكاره ، وحفّت النار بالشهوات))[١] :

مرادُ هوًى حفّتْ بـه مُـرُدُ العِـدَى ودونَ جنانِ الخُلْدِ تُلْقَـى المكـارهُ[٢]

ويستلهم شاعر آخر هو أبو محمد غانم بن وليد المخزومي المالقي معنى الحديث النبوي ((من أصبح منكم آمناً في سِرْبه ، معافًى في جسده ، عنده قوتُ يومه فكأنما حيزت له الدنيا))[٣] . يقول :

ثلاثـةٌ يجهـل مقـدارُها الأمـنُ والصـحةُ والقـوتُ

فـلا تثـقْ بالـمالِ مـن غيرِهـا لـو أنـّه درٌّ ويـاقوتُ[٤]

وقد أكثر لسان الدين بن الخطيب ، ذو الثقافة الموسوعية من اقتباس ألفاظ الحديث الشريف في تعزيز المعنى الذي يسوقه . من ذلك قوله في تضمين الحديث الشريف « مطلُ الغنيِّ ظُلْم » :

وقلـتُ لجفـني إنْ دعيـتَ لعـبرةٍ فساعدْ بـها مطلُ الغنيّ من الظُّلْمِ[٥]

---

(١) انظر نص الحديث في الترمذي ، أبو عيسى محمد . الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي . تحقيق وتعليق إبراهيم عطوة عوض . ط ٢ . شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر . ١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م ، ٦٩٣/٤ رقم الحديث (٢٥٥٩).

(٢) ديوانه ص ٣٠٣ .

(٣) انظر : نص الحديث في سنن الترمذي . ٥٧٤/٤ . رقم الحديث ٢٣٤٦ .

(٤) نفح الطيب ٣٣٠/٤ .

(٥) ديوانه ٥٢٩/٢ . واقتبس الحديث الشريف عينه في موضع آخر . انظر : ديوانه ٣٦٨/١ وانظر : نص الحديث النبوي في صحيح مسلم . المجلد الخامس ٢٢٨/١٠ .

وجنح الشاعر الأندلسي إلى التورية بأصول علم الحديث ، ومصطلحاته ، وأعلامه مبرزاً ثقافته الواسعة ، أو متظرفاً . فمن نماذج ذلك هذه الإشارة الرشيقة إلى الحديث المعنعن في التغني بمحاسن هذا المحبوب . يقول ابن سهل :

يثني الكؤوسَ نوافحاً بروائحٍ يشربْنَ من أنفاسِهِ في كاسِهِ
فالمسكُ يروي الطيبَ عن مسكِ الصَّبا عن أكؤسِ الجريالِ عن أنفاسِهِ[1]

ويقتبس ابن زمرك مصطلح الحديث المسند في حديث العشق وشجونه . يقول :

شفاني معتلُّ النسيمِ إذا انبرى وأسندَ عن دمعي الحديثَ الذي جرى[2]

ويتملح ابن زمرك بأسماء رواة الحديث متغنياً بجمال الروض وإشراقه . يقول :

ماهبّ خفّاقُ النسيمِ مع السَّحَرْ إلا وقد شاقَ النفوسَ وقد سحَرْ
وروى الضحّاكُ عن زهرِ الرُّبا ماأسند الزهريُّ عنه عن مطرْ
وتحمّلتْ عنه صحيحَ حديثِهِ رسلُ النسيمِ وصدّقَ الخبرُ الخبرْ[3]

وهذا لسان الدين بن الخطيب يورّي بالمصطلح الحديثي في سياق التنويه بمآثر قوم الممدوح ، وتليد شرفهم . يقول :

تروي العوالي في المعالي عنهُمُ أثرَ الندى المولودِ والمكسوبِ
عن كلِّ موثوقٍ به إسنادُه بالقطعِ أو بالوضعِ غير معيبِ
فأبو عنانٍ عن عليٍّ غضّةً للنقلِ عن عثمانَ عن يعقوبِ[4]

---

(١) ديوانه ص ٢٦٢ .
(٢) شعر وموشحات الوزير ابن زمرك الأندلسي . تقديم حمدان حجاجي ص ١٢٤ .
(٣) شعر وموشحات الوزير ابن زمرك الأندلسي ص ٥٢ .
(٤) ديوانه ١/١٣٠ .

وعلى هذا يستوحي لسان الدين بن الخطيب من أسماء العلماء دلالات تخدم غرضه في وصف المشهد الطبيعي . يقول :

روينا عن الضحّاكِ مسـندَ زهرِهـا وقد مثّلت فيها المشـايخُ أغصـانَا[1]

وأدَّتْ عن البَكَّـاءِ سـحبَ غمامـةٍ فروّى صدى النبتِ المشيمِ وروّانـا[2]

ومن الطريف أن تغدو ألقاب الحديث الشريف ومصطلحاته ميداناً للتظرف الشعري . ودوننا قصيدة طريفة لشاعر يسوق فيها معاني الغزل والحب مغشاة بأسماء الحديث ، وضروبه ومصطلحاته التي يتكلفها الشاعر تكلفاً يشي بأن الغاية منها إبراز التبحر في علم الحديث . يقول شهاب الدين أبو العباس أحمد ابن فرج :

ولا حسـنٌ إلاّ سـماعُ حـديثِكُمْ مشـافهةً يُملـى علـيَّ فأنقـلُ

وأمري موقـوفٌ عليـكَ وليس لي علـى أحـدٍ إلاّ عليـكَ المعـوّلُ

ولو كان مرفوعاً إليـكَ لكنـتَ لي على رغـمِ عُـذّالي تـرقُّ وتعـذلُ

خُذِ الوجدَ عـني مُسْـنداً ومعنعنـاً فغيريَ موضوعَ الـهوى يتحيَّـلُ[3]

---

(١) ديوانه ٢/٥٨٠ . والضحاك هو الضحاك بن مزاحم فقيه محدث .

(٢) البكاء : زياد بن عبد الله بن طفيل القيسي العامري البكائي أبو محمد من رواة الحديث .

(٣) نفح الطيب ٢/٥٢٩ . والحديث الحسن : هو الحديث الذي اتصل سنده بنقل عدل خف ضبطه غير شاذ ، ولا معلل .

والموقوف : ماأضيف إلى الصحابة رضوان الله عليهم، ولم يتجاوز به إلى الرسول ﷺ . سمي موقوفاً ؛ لأنه وقف به عند الصحابي ، ولم يرتفع إلى النبي ﷺ .

والمرفوع : هو ما أضيف إلى النبي ﷺ خاصة من قول ، أو فعل ، أو تقرير ، أو وصف .

والمسند : هو ماتصل سنده مرفوعاً إلى النبي ﷺ .

والمعنعن : هو الحديث الذي يقال في سنده : « فلان عن فلان ، من غير تصريح بالتحديث ، أو الإخبار ، أو السماع . ==

٥- علوم النحو واللغة :

وهي من أشد العلوم نشاطاً وتوقداً في الأندلس ، فقد نهضت دراسات اللغة نهوضاً بالغاً ، وشغف الأندلسيون بعلم النحو على نحو خاص ، وكان عندهم في الذروة من العلوم لايجوز أن يهمله العالم في أي علم من العلوم جميعاً ، بل كان التمكن منه أمارة امتياز وتقدير ، بينما كان الجهل به باعثاً على الاستهجان[١]. وعلى ذلك برزت في أشعار الأندلسيين شذرات من علم النحو واللغة على نحو عفوي رشيق حيناً،وفي سياق من الإقحام والتكلف حيناً آخر. وكانت لهم مواقف نقدية لغوية في بعض الأحيان . وهي جميعها تفصح عن ذاك التوقد الذي حظي به هذا العلم في بيئة الأندلس حتى غدا الإقبال عليه عامًّا لايكاد يخلو منه إلا جاهل .

أما الإشارات النحوية فكثرت في شعرهم كثرة مفرطة . منها قول ابن عبد ربه في ممدوحه :

أضحى لك التدبيرُ مطرداً مثلَ اطّرادِ الفعلِ للاسمِ[٢]

== والموضوع : هو المختلق المصنوع الذي ينسب إلى الرسول ﷺ كذباً وهو ليس بحديث لكنه سمي حديثاً بالنظر إلى زعم راويه .
انظر : عتر . دكتور نور الدين . علم الحديث والدراسات الأدبية . مطبعة النصر . ١٩٨٦م ، ص٦٧-٨٦ .

(١) يروي المقري : ((والنحو عندهم في نهاية من علو الطبقة ، حتى إنهم في هذا العصر فيه كأصحاب عصر الخليل وسيبويه لايزداد مع هرم الزمان إلا جدة . وهم كثيرو البحث عنه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه ، وكل عالم في أي علم لايكون متمكناً من علم النحو بحيث لاتخفى عليه الدقائق ، فليس عندهم بمستحق للتمييز ، ولا سالم من الازدراء)) . نفح الطيب ١/٢٢١، ٢٢٢ . بل كان التضلع في علم النحو مبعثاً على العجب لدى بعض الأفراد فـ ((إذا كان الشخص بالأندلس نحويًّا ، أو شاعراً فإنه يعظم في نفسه لامحالة ، ويسخف ، ويظهر العجب عادة قد جُبلوا عليها)) . نفح الطيب ١/٢٢٢ .

(٢) ديوانه ص ١٧٦ .

وهذا أبو عبيد البكري ذو الباع الطويل في النحو واللغة يستلهم مصطلحات النحو ومبادئه في شكواه من الدهر . يقول :

وما زالَ هذا الدهرُ يلحنُ في الــورى فيرفعُ مجــروراً ويخفــضُ مُبتــدا[1]

أما ابن دراج فيستعير علمه النحوي في معرض إلحاحه على الحاجب المنصور ـ وهو في كنفه ـ أن يحضّه على الإقدام في مواجهة الصعاب ، وتخطّي الخطوب خشية أن يسلمه السكون إلى درك الخمول . يقول :

فقُدْني لكَشْفِ الخطبِ والخطبُ مُعْضِلٌ وكِلْني لليثِ الغــابِ وهــو هصــورُ

فقد تُخفضُ الأســماءُ وهي ســواكنٌ ويعمل في الفعلِ الصحيحِ ضــميرُ[2]

وحين ينوّه ابن الحداد بعدل المعتصم الصمادحي يأتي ببعض أصول النحو إتياناً متعمّداً . يقول :

لاتــألفُ الأحكــامُ حيفــاً عنــدَهُ فكأنــــّها الأفعــالُ والتنــوينُ[3]

ومن لطيف الاستخدام للعلم النحوي قول أبي بكر محمد بن طلحة الإشبيلي ، ((وشعره رقيق خارج عن شعر النحاة)) [4] يحتال في إدخال الدلالة النحوية في معاني الغزل والحب إدخالاً رشيقاً :

بــــدا الهــــلالُ فلمّــــا بــــدا نقصْــــتُ وتَمَّــــا

كــــأنّ جســــميَ فعــــلٌ وســــحرُ عينَيْــــه لَمّــــا[5]

ويحسن الشاعر إذ يسرّب المصطلح النحوي ضمن الصياغة الفنية الرشيقة للمعنى الرقيق ، فيخرجه إخراجاً فنيًّا بديعاً . يقول ابن خفاجة في الغزل :

تنفّس بينَ الــروضِ يخطُــرُ والصَّــبا وأشرفَ بين الغصنِ يــأطِرُ والحقــفِ

وقد عطفَتْ وهناً به الكــأسُ هــاجراً وما كنتُ أدري الكأسَ منْ أحرفِ العطفِ

---

(١) الذخيرة ٢/١ : ٢٣٨ . (٢) ديوانه ص ٣٠٣ .

(٣) ديوانه ص ٢٧٧ . والتنوين من العلامات المميزة للأسماء لأنه لايكون في الأفعال .

(٤،٥) نفح الطيب ٤٧٦/٣ .

وناولتُــهُ صــفراءَ لم يــرَ صــرفها دهاقاً على الساقي فيلحنَ في الصَّــرفِ[1]

ويورّي ابن جبير اليحصبي بأسماء بعض علماء النحو على سبيل التفكه . يقول فيمن أهدى إليه تفاحاً :

أتــاني مقــبلاً والبشــرُ يبــدي وســائلَ بَــرّةٍ كرمَــتْ لديــه
وجــاءَ بعَــرْفِ تفــاحٍ ذكــيٍّ فقلــتُ أتــى الخليــلُ بســيبويهِ[2]

وكذلك يستلهم ابن سهل الأندلسي أبواب النحو في معرض شكواه الحارقة من الوجد والضنى . يقول :

أموسى أيا بعضــي وكُلّــي حقيقــةً وليس مجازاً قــولي الكــلَّ والبعضــا
خفضتَ مكاني إذْ جزمْــتَ وســائلي فكيف جمعتَ الجزمَ عندي والخفّضــا[3]

وعلى النقيض من ذلك يلتاح تكلف الثقافة النحوية ، إذ يقحم الشاعر العالم مصطلحات النحو في معاني شعره لإبراز العلم . فهذا لسان الدين ابن الخطيب يتلاعب بالمصطلح النحوي تلاعباً يفضي إلى إغماض المعنى وتعقيده ، فينتهي به إلى السقم والدنو من الألغاز والأحاجي . يقول :

وقد رأيــتُ مســيري عــزّ مطلبُــهُ والطّرْفُ والظّرْفُ يُبكــيني ويكــويني
نصبتُ حالي لرفعِ الضــمّ منجزمــاً بالكسرِ علّ بَرشفِ الضمّ تحيــيني[4]

ومن باب التظرف أن يحشد الشاعر أبواب النحو ومصطلحاته مازجاً إياها بأحوال الحب ومعانيه حشداً لاغاية من ورائه سوى إبراز البراعة ، وإحداث الغرابة في سياق يفتقد صدق الشعور . يقول أبو جعفر بن صفوان المالقي :

ســألتُهُ الإتيــانَ نحــوي مقــبلاً فقالَ ســلْ نحــوي كــي تُحصِّــلا
قرأتُ بابَ الجمعِ مــن شــوقي لــهُ وهو بالاشــتغالِ عــني قــدْ سَــلاَ

---

(١) ديوانه ص ٢٤٢ .
(٢) نفح الطيب ٣٠٤/٤ .
(٣) ديوانه ص ٢٢٧ .
(٤) ديوانه ٦١١/٢ .

للاستغاثةِ ابتدأتُ تالياً ... وهو لأفعالِ التعدّي قد تَلا

وكلّما طلبتُ منه في الهوى ... عطفاً غدا يطلبُ منّي بدلا

في ألفِ الوصلِ ظللتُ باحثاً ... وهو بابِ الفصلِ قد تكفّلا

فلستُ موصولاً وليس عائداً ... وليس حالي عن أسًى منتقلا[1]

ونمّت بعض هذه الإشارات النحوية على خصوصية بعض الأحداث في تاريخ الأندلس . من ذلك قول محمد العربي العقيلي في متنصّر ظفر به المسلمون مفصحاً عن مشكلة الارتداد عن الإسلام أو التنصُّر خوفاً أو طمعاً . تلك المشكلة التي برزت في هذه الحقبة الأخيرة من تاريخ الأندلس . حقبة مملكة غرناطة . يقول :

ألا رُبّ مغرورٍ تنصّر ضِلّةً ... فحاق به شؤمُ الضلالِ وشرّهُ

فإنْ يرتفعْ عندَ النصارى بالابتدا ... فكم عندَنا من حرفِ حبلٍ يجرُّهُ [2]

ومن الإشارات اللغوية قول ابن دراج يبرز إلمامه ببعض لغات العرب ولهجاتها . يقول في المظفر يحيى بن منذر بن يحيى :

وقَرَّ عيناً بما أقررتَ أعيننا ... ماشاكَهَ اسمَ الحيا واسمَ الحياةِ سِمُكْ[3]

ومن الإشارات الإملائية قول الأديب النحوي أبي عبد الله بن خلصة الضرير:

بأرضٍ بها الإلفُ الموازي بزعمِهِ ... إذا غبتُ عن عينيه يلمزني لَمْزَا

يرى عينَ تبجيلي ووجهَ تحيّتي ... ملاحظتي غمزاً وتكْلِمَتي رَمزا

كما اجتلبَتْ في البدءِ للوصلِ همزةٌ ... فإنْ وجدوا عنها غنًى أسقطُوا الهمزَا[4]

---

(١) نفح الطيب ١٤٩/٤ .

(٢) ابن شريفة . محمد ، البسطي آخر شعراء الأندلس . الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر ، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ـ لبنان . ط ١، ١٩٨٥م ، ص١٩٠ .

(٣) ديوانه ص ٥٠٦ . والسم (بكسر السين وضمها) لغة في الاسم .

(٤) الذخيرة ٣/١ : ٣٢٨ .

وأدلى بعض شعراء الأندلس بدلوهم في النقد اللغوي ، فصدرت عنهم ملاحظات يسيرة تنطوي على التصويب والإرشاد إلى الاستخدام السليم . من ذلك تخطئة الزبيدي اللغوي الوزير المصحفي في استخدامه الفعل فاض بالضاد مبيناً الاستعمال السليم له ، ومدلّلاً عليه بروايات علماء اللغة ، مستشهداً بكلام العرب . يقول :

أتاني كتابٌ من كريمٍ مكرَّمٍ ... فنفّسَ عنْ نفسٍ تكادُ تفيظُ
فسرّ جميعَ الأولياءِ ورودُهُ ... وسيء رجالٌ آخرون وغيظُوا
وباحثْتُ عنْ فاظَتْ وقبلي قالها ... رجالٌ لديهمْ في العلومِ حظوظُ
روى ذاك عن كيسانَ سهلٌ وأنشدوا ... مقالَ أبي الغيّاظِ وهو مغيظُ[1]

وعلى هذا النحو من تحري السلامة اللغوية يدور هذا الخلاف النقدي بين شاعر وفقيه يخطّئ فيه الفقيه الشاعر ، بينما ينتصر الشاعر لاستخدامه مؤنّباً صاحبه ومحتجاً على مذهبه بأقوال العرب ، ومقايساً بالاستخدام اللغوي المألوف . فحين أنشد الجزار السرقسطي أحدهم قصيدة « وصله أنّ الفقيه أبا الحسن علي بن عبد الله البرجي انتقد عليه بيتاً منها هو :

لمْ تسمع الآذانُ قبلَ هدائها ... بحمامةٍ زُفّتْ إلى فتخاء

فقال : « إن الفتخاء مؤنثة ولا يوصف بها مذكر » فَكَتَبَ إليه بهذه القصيدة يوبخه فيها ويعاتبه بقوافيها . وهي هذه :

أإنْ صحّ بالفتخاءِ تشبيهُنا الفتى ... زهيراً بدَتْ في النقدِ منكَ غرائبُ
وللعربِ من هذا كثيرٌ وهل لنا ... بمَنْ نقتدي في الشعرِ إلا الأعاربُ
أما قالَ للنعمانِ شاعرُ قومِهِ ... لأنّكَ شمسٌ والملوكُ كواكبُ

---

(١) الجذوة ص ٤٤، ٤٥ .

فشـــبّهه بالشـــمسِ وهـــي لـــديهمُ مؤنثةٌ هل عـــابَ ذلـــك عائـــبُ[1]

٦- العروض :

برزت إشارات إلى هذا العلم ضمن معاني الشعر الأندلسي المختلفة . من ذلك قول ابن عبد ربه مستمدًّا مصطلحات العروض بدلالاتها الأولى . يقول :

أطفَـــــتْ شـــــرارةَ لهـــــوي ولـــــوَتْ بشـــــدةِ عَـــــدْوي
شـــــعلٌ علـــــون مفـــــارقي ومضَـــــتْ ببهجـــــةِ ســـــروي
لـــــما ســـــلكتُ عروضَـــــها ذهـــــبَ الزحـــــافُ بجـــــذوي[2]

ومعروف أن ابن عبد ربه نظم أرجوزة في العروض ضمن الشعر التعليمي مظهراً من مظاهر الجنوح إلى المذهب المحدث في الشعر[3] . أما ابن الحداد فيجتلب مبادئ العروض ليمثّل بها طبائع الناس ، وحقائق أحوالهم تمثيلاً أدنى إلى الافتعال ، وإبراز العلم . ولا سيما أنه كان عروضيًّا ذا تصنيف في علم العروض مزج فيه بين الأنحاء الموسيقية ، والآراء الخليلية[4] . يقول :

ياسائلي عمَّا زكنْتُ مـن الـورى والسـرُّ قـد يفضـي إلى الإعـلانِ
إيها سقطت علـى الخـبيرِ بحـالِهِمْ عنـدَ العـروضِ حقـائقُ الأوزان
هُمْ كالقريضِ وكسـرُهُ مـن وزنـهِ يبـدو مـن التحريـكِ والإسـكانِ
ومتى تحل حالاهـما عـن كنـهِهَا أنكرتَ منـه واضـحَ العرفـانِ[5]

---

(١) روضة المحاسن . ديوان الجزار السرقسطي ـ تحقيق : دكتور منجد مصطفى بهجت . مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٩٨٨م، ص ٨٧- ٩٤- ٩٥- ٩٦- ١٠٣.
(٢) ديوانه ص ١٩٧ .
(٣) انظر : أرجوزته مع الدوائر العروضية في ديوانه ص ٢٣٠-٢٤٤ .
(٤) انظر : التكملة ٣٩٨/١ وفيه أنه سمّى مؤلفه هذا بالمستنبط ، ونفح الطيب ٥٠٢/٣ . وانظر مثالاً آخر لابن الحداد في الإشارات العروضية في ديوانه ص ٢١٦ .
(٥) ديوانه ص ٢٨٧ .

ويتملح هذا الشاعر بذكر أسماء البحور العروضية ومصطلحاتها مورّياً بها عن مشاعر الهوى المزعوم . يقول :

دائـــرةُ الحـــبِّ قـــدْ تناهَـــتْ فمـــا لـــــها في الـــــهوى مزيـــدُ
فبحـــرُ شـــوقي بـــــها طويـــلٌ وبحـــرُ دمعـــي بـــــها مديـــدُ
وإنَّ وجـــدي بـــــها بســـيطٌ فليفعـــل الحســـنُ مايريـــدُ (١)

٧- الأدب :

اقتبس الشاعر الأندلسي شذرات من الشعر العربي ، أو من أخبار شعرائه متمثلاً بها ، ومفصحاً عن ثقافة أدبية كان طبيعيًّا أن يقبل عليها ويتحقق بها . فقد أولع ابن عبد ربه بتضمين أبيات الشعر القديم في قصائده مظهراً للميل إلى طريقة العرب الشعرية(٢). من ذلك قوله يجعل بيتاً من الشعر القديم أساس مقطوعة له :

زادني لومُـــــكَ إصـــــرارا إنّ لي في الحـــــب أنصـــــارا
طـــارَ قلبـــي مـــن هـــوى رشـــأٍ لـــو دنـــا للقلـــبِ ماطـــارا
خُـــذْ بكفِّـــي لاأمـــتْ غرقًـــا إنَّ بـــحـــرَ الحـــبِّ قـــدْ فـــارا
أنضـــجَتْ نـــارُ الهـــوى كبـــدي ودمـــــوعي تطفـــئُ النـــــارا
«رب نـــــارٍ بـــــتُّ أرمقُهـــــا تَقضِـــمُ الهنـــديّ والغـــارا» (٣)

وقد أكثر ابن صارة من استعارة تعبيرات الشعراء الأقدمين مُظهراً اطلاعه على أشعارهم . من ذلك قوله :

---

(١) نفح الطيب ٦٧٩/٢ .

(٢) انظر على سبيل المثال ديوانه ص ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ١٠٠ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٨١ ، ١٨٧ ، ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٣) ديوانه ص ٨٥ . والبيت الأخير لعدي بن زيد العبادي . انظر : الأصبهاني . أبو الفرج . الأغاني . مصور عن طبعة دار الكتب . مؤسسة جمّال للطباعة والنشر ١٤٧/٢ .

ولبيـــــدٌ لم يشـــــترطْ لبكـــــاءٍ غير حولٍ مضـــى وقـــالَ ســـلام[1]

ويشير ابن شرف إلى بعض أحوال الشعراء المشارقة ، إذ يشاكل بينها وبين حال الرضا التي يحياها . يقول :

سلْ عن رضايَ عـــن الزمـــانِ فإنّـــه كرضى الفرزدقِ عـــن بـــني يربـــوعِ

للهِ حـــالٌ قـــد تنقّـــلَ عهـــدُها بخلافِ نقلِ الدهرِ حـــالَ صـــريعِ[2]

ويعلّق ابن بسام موضحاً : ((كان صريع الغواني خاملاً ، فولاه بنو سهل جرجان فشرُف))[3].

ويستلهم لسان الدين بن الخطيب الموروث الشعري القديم مشيراً إليه بقوله يذكر علة أحد أصحابه التي مالبث أن برئ منها وألمه لذلك . يقول :

ولكـــــنْ نَغَّـــــصَ المســـــرى ودهـــــري كلُّـــــه عجـــــبُ

وأوحـــــت عنـــــكَ لي وَصَـــــبا تخطّـــــى مجَـــــدك الوصـــــبُ

فصـــــرتُ كصـــــاحبِ الضلّـــــ ـــــيلِ دونَ الـــدّرْبَ أنتحـــبُ[4]

٨- الأمثال :

أفصح التمثل بالمثل في الشعر الأندلسي عن إلمام بالثقافة العربية الأصيلة ، وجنوح إلى إبراز هذا الإلمام ، وهذه الثقافة . فهذا ابن دراج يُدلِّ بتعمقه في المثل العربي إذ يقول في شجاعة الممدوح ، وجلاده للعدو برماحه :

---

(١) ابن صارة الأندلسي ، دكتور مصطفى عوض الكريم ص ٣٩ .

(٣،٢) الذخيرة ١/٤ : ٢٢٦ .

(٤) ديوانه ١٢٤/١ . ويقصد امرأ القيس الشاعر الجاهلي المعروف . والبيت إشارة إلى قوله :

بكى صاحبي لـــما رأى الـــدرب دونـــه وأيقـــــن أنـــــّا لاحقـــان بقيصـــرا

فقلـــتُ لـــه لا تبـــكِ عينـــك إنـــما نحاول ملكـــاً أو نـــموت فنعـــذرا

شرح ديوان امرئ القيس . تـأليف حسن السندوبي . ط ٣ . ١٣٧٣هـ- ١٩٥٣م . مطبعة الاستقامة ـ القاهرة . ص ٨٩ .

وكائنْ لـــها في كلِّ ملكٍ من العِــدى وإن جَلّ عن فتقٍ يجــلُّ عــن الرّقْــعِ
ومن معقلٍ أشرعْنَ حوليــه فاغتــدى أذلّ لــوطءِ المقربــاتِ مــن الفقــعِ
قرعَـــتْ ذراهُ يـــامظفّرُ قرعـــة أصمَّ صداها كلَّ مسترقِ السّــمعِ[1]

وكذلك يضمّن ابن الحداد قصة المثل العربي ذات الرمز اليائس في حديث عن حبه المعذب ، ومظهراً من مظاهر الجنوح إلى التيار المحافظ في الشعر وهو تضمين ينطوي على إبراز العلم ، فيقول :

والقارظانِ جميــلُ صــبريَ والكــرى فمتى أرجّي منــك طيــفَ خيــالِ[2]

ويومئ ابن بقي إلى المثل السائر في شكواه من الزمن . يقول :

ولا ذنبَ لي عنــدَ الزمــانَ علمتُــهُ سوى أنّــني للشــعرِ آخــرُ نــاظمِ
توهمتُهُ عمــرو بــنَ هنــدٍ وخِلْــتَني شقيًّا أتاهُ مِــنْ وفــودِ الــبراجمِ[3]

---

(١) ديوانه ص ٢٥٨ . والفقع : بفتح الفاء وكسرها هو الأبيض من الكمأة ، وهو أردأها . وبه يشبه الرجل الذليل . يقال : « أذلُّ من فقع بقرقرة » لأنه لايمتنع على من اجتناه ، ويقال لأنه يوطأ بالأرجل ، ولأن الدواب تنجله . انظر : الميداني أبو الفضل النيسابوري . مجمع الأمثال . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة بمصر . ط ٢ ، ١٩٥٩م ، ص ٢٨٤/١ .

(٢) ديوانه ص ٢٤٩ . والقارظان : رجلان من عنزة ذكرتهما الشعراء قديماً ، روى أنهما خرجا في طلب القرظ فلم يرجعا ، فضُرب بهما المثل ((حتى يؤوب القارظان)). والقرظ : شجر يدبغ به . يقول الشاعر : كما لارجاء في عودة القارظين كذلك لارجاء لي في أن أحظى بك وأنال رضاك . هامش رقم ٤ من ص ٢٤٩ . وانظر : المثل في : مجمع الأمثال ٢١١/٢ .

(٣) الذخيرة ٢/٢ : ٦٢٦ . ويشير إلى المثل : ((إن الشقيَّ وافد البراجم)) قالها عمرو ابن هند وكان قد آلى أن يحرق مئة من بني تميم لأن أحداً منهم قتل أخاه وهرب ، فحرق تسعة وتسعين ، ووفى العدد برجل من البراجم أقبل على النار يظن أنه يجد عندها طعاماً . يُضرب لمن يوقع نفسه في هلكة طمعاً . هامش رقم (٣) وانظر : الميداني . مجمع الأمثال ٩/١ و ٣٩٥ .

وكذلك يضمن لسان الدين بن الخطيب المثل المعروف حين يعلي من مقام الممدوح . يقول :

مقامُكَ حيث السحبُ هاميةُ النـدى مقيلٌ لإصباحِ السُّرى فيـه إخمـادُ[1]

وقد يتخذ الشاعر من علمه بالأمثال وسيلة لإبراز البراعة الفنية . فهذا ابن عبد ربه يحشد مجموعة من الأمثال ، ويفتنُّ في توزيعها على أبيات شعره متكلفاً المعاني التي تشاكلها . يقول : ((قال أبو عمر : ومن قولنا في بيت أوله مثل وآخره مثل :

قـد صـرّح الأعـداءُ بـالبَيْنِ وأشـرقَ الصـبحُ لـذي العـينِ

وبعده أبيات في كل منها مثل ، وذلك :

وعـادَ مَـنْ أهـواه بعـدَ القِلـى شـقيقَ روحٍ بـينَ جسـمينِ

وأصـبحَ الـداخلُ في بيننـا كسـاقطٍ بـين فراشـينِ

قـد ألـبسَ البغضـةَ هـذا وذا لايصـلحُ الغمـدُ لسـيفينِ

مابـالُ مَـنْ ليسَـتْ لـه حاجـةٌ يكـونُ أنفـاً بـينَ عيـنينِ))[2]

٩- الثقافة الشيعية :

لم يظهر الأثر الثقافي الشيعي في الشعر الأندلسي على نطاق واسع نحو نظيره في المشرق . ذلك أن التشيع لم يتسم بالقوة التي كان عليها في المشرق الإسلامي . وذلك لسيادة المذهب السني في عصور الأندلس جميعها ولا سيما في العصور المتقدمة ، وبسبب المقاومة الأندلسية لكل خروج فكري عن وحدة المذهب ، ورفضها لكل نزوع فكري مناوئ لوحدة الكلمة الأندلسية . فقد روى المقدسي أن الأندلسيين كانوا يقولون : ((لانعرف إلا كتاب الله ، وموطأ

---

(١) ديوانه ٢٧٢/١ . إشارة إلى المثل المعروف : ((عند الصباح يحمد القومُ السُّرى)) . يضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة . انظر : مجمع الأمثال ٣/٢ .

(٢) ديوانه ص ١٩٣ .

مالك))[1] وأنهم إذا ((ظهروا على حنفي ، أو شافعي نفوه ، وإن عثروا على معتزلي ، أو شيعي ، ونحوهما ربما قتلوه))[2] .

ومع هذا قُدّر للثقافة الشيعية أن تردِّد صدى قويًّا لها في الأندلس والمغرب في شعر ابن هانئ الأندلسي (- ٣٧٢هـ) الذي كان أهم شاعر أندلسي ترجم عن مبادئ الشيعة وأفكارهم ، وأفصح عن إيمان بالغ بمذهبهم ، وانتصار جلي لآرائهم . ذلك أن ابن هانئ تبنى عقيدة الشيعة الإسماعيلية ، وخرج بسببها من الأندلس إلى شمال إفريقيا حيث اتصل بزعمائها الفاطميين ، وغدا من دعاتها[3] . ولذا كنا نراه يردد في شعره ، ولا سيما في المعز الفاطمي النظرية الشيعية الإسماعيلية بكل غلوها وشططها ((وشعره في هذه الناحية مرجع مهم لمن يبحثون في العقيدة الفاطمية ، وكل ماكان يؤمن به دعاتهم من صفات علوية في الإمام))[4] .

فقد جلا ماتذهب إليه هذه العقيدة من تقديس بالغ للإمام ؛ إذ تعليه على البشر ، وتجعله عالماً بالظاهر والباطن ، وترى فيه روحاً إلهية . يقول في علم إمامه :

وعلمتَ من مكنونِ علمِ اللهِ ما ... لم يؤتِ جبريلا وميكائيلا
للّهِ فيكَ سريرةٌ لو أُعطيتْ ... أحيا بذكرك قاتلٌ مقتولا
لولا حجابٌ دونَ علمكَ حاجزٌ ... وجدوا إلى علمِ الغيوبِ سبيلا
لو لم تعرّفنا بذاتِ نفوسِنا ... كانتْ لدينا عالماً مجهولا[5]

ويقول في عدله :

إمامُ عدلٍ وفَى في كلِّ ناحيةٍ ... كما قضوا في الإمامِ العدلِ واشترطوا[6]

(١،٢) أحسن التقاسيم ص ٢٣٦ . (٣) انظر مقدمة ديوانه ص ٢٠-٢٢ .
(٤) ضيف . دكتور شوقي . الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٤٢٠ .
(٥) ديوانه ص ٥٨٣ . (٦) ديوانه ص ٣٩٣ .

ويعبر عن فكرة الإمام المعصوم :

مؤيّـــدٌ باختيـــارِ اللهِ يصـــحبُهُ وليس فيمـا أراهُ اللهُ مـن خلـلِ[1]

ويقول في شفاعة الإمام المعز لدين الله :

هـذا الشـفيعُ لأمـةٍ يـأتي بـها وجـدودُه لجـدودِها شـفعاءُ[2]

هذا الذي تُجـدي شـفاعته غـداً حقّـاً وتحمـدُ أن تـراهُ النـارُ [3]

ويعبر عن قداسة الإمام حين يجعله مخلوقاً من ماء الوحي الطهور ، ومن جذوة النار التي آنسها موسى عليه السلام ليهتدي بها وسط سمادير الظلام ، ومن جوهر النور المقدس ، مسربلاً بسيما النبوة ، ونور الألوهية . يقول :

من صفوِ ماءِ الـوحيِ وهـو مجاجـةٌ من حوضِـهِ الينبـوعُ وهـو شـفاءُ

من شعلةِ القبسِ التي عُرِضَـتْ علـى موسى وقـد حـارَتْ بـه الظلمـاءُ

من معدنِ التقـديسِ وهـو سـلالةٌ من جوهرِ الملكـوتِ وهـو ضـياءُ

فعليـه مـن سـيما الـنبيّ دلالـةٌ وعليه من نـورِ الإلـهِ بـهاءُ [4]

ويشتط إذ يقرن إمامه بالخالق جل وعلا في فضل طاعته ، ووبال عصيانه ، بل يجعل مديحه يقتضي الغفران والرضا الإلهي . يقول في المعز :

إمـامٌ رأيـتُ الـدينَ مرتبطـاً بـه فطاعتُـهُ فـوزٌ وعصـيانهُ خُسْـرُ

أرى مدحَـهُ كالمـدحِ للهِ إنّـهُ قنوتٌ وتسبيحٌ يُحَـطُّ بـه الـوِزْرُ[5]

ويطمح الشاعر إلى شفاعة الفاطميين يوم الحشر الأعظم ، فهم مؤيدون بالكرامات العظيمة ، والمعجزات الباهرة . يقول :

أبناءَ فـاطمَ هـل لنـا في حشـرِنا لجـأٌ سـواكم عاصـمٌ ومُجـارُ

---

(١) ديوانه ص ٥٩٥ .
(٢) ديوانه ص ١٨ .
(٣) ديوانه ص ٣٩٥ .
(٤) ديوانه ص ١٥- ١٦- ١٩ .
(٥) ديوانه ص ٣٤٢ .

obeikandl.com

لو تلمسون الصخرَ لانبجسَتْ به وتفجّرتْ وتدفّقت أنهارُ [1]

ويفصح ابن هانئ عن إيمانه البالغ بالتشيع ، واقتناعه التام بفضله ـ فضلاً عن الدين الإسلامي الحنيف ـ على بقاع المغرب إصلاحاً وتقويماً . يقول في مديح أحدهم :

لله من علويِّ الرأي منتسب إلى العُلى وائلي الأصل مريِّ
شيعيَّ أملاك بكر إنْ هُمُ انتسبوا وليس تلقى أديباً غيرَ شيعيّ
مَنْ أصلحَ المغربَ الأقصى بلا أدبٍ غيرُ التشيُّعِ والدينِ الحنيفيّ [2]

أما في عصر الطوائف فظهر التيار الشيعي لدى بني حمود أمراء قرطبة ، ومالقة ، والجزيرة الخضراء متجلياً في مديح بعض الشعراء لهم بانتسابهم إلى الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام . وكان ابن دراج من أوائل الشعراء الذين تغنوا بفضائل أهل البيت في مدائحهم ، ونوّه بنسبهم إلى الرسول الكريم وبعض أعضاء الأسرة الهاشمية أملاً في إيوائه والظفر بودهم . يقول :

الهاشميِّ الطالبيِّ الفاطميِّ الوارثِ العليا بأعلى قعددِ
يابنَ الشفيعِ بنا وأكرمَ أسوةٍ للمقتدين وأنت أجدرُ مقتدِ
يابنَ الوصيِّ عليَّ أوصِ سميَّه ألاّ يضيعَ سميُّ جَدِّك أحمدِ
ياصفوةَ الحسنيْنِ كم قدْ أحسَنَا إصفاءَ ودّ النازحِ المتودِّدِ
وإذا وردْنَا حوضَ جدِّكَ فاستمعْ وأبوك يسقي للرّواءِ السرمدِ
شكرَ الذي أرحبتما من مترلي وثناءَ مارفّهتما من موردِ [3]

وبرز الميل الشيعي الذاتي لدى الشاعر الذي صرّح بولائه للحاكم الشيعي . يقول عبادة بن ماء السماء في علي بن حمود الحسني :

أطاعتك القلوبُ ومن عصيُّ وحزبُ الله حزبُك ياعليُّ

---

(١) ديوانه ص ٣٧٥ .
(٢) ديوانه ص ٨٠٣ .
(٣) ديوانه ص ٧٢-٧٤ .

فـــإنْ قـــال الفخـــورُ أبي فـــلانٌ فحســـبُك أن تقـــولَ أبي الـــنبيُّ[1]

وكذلك أفصح ابن الحناط عن حبه لآل النبي الكريم عليه الصلاة والسلام في مديحه ليحيى بن حمود قائلاً :

إن كـــانَ عـــدُّوا حـــبَّ آلِ محمـــدٍ ذنباً فـــإنّي لســـتُ منـــه أتـــوبُ[2]

أما قصيدة ابن مقانا الأشبوني الشهيرة في إدريس بن يحيى الحمودي فلا تحتوي من معاني التشيع أكثر من مديح الحموديين بنسبهم النبوي ، وعدّهم مخلوقين من نور الخالق جلّ وعلا . يقول :

يـــابني أحمَـــد يـــاخيرَ الـــورى لأبـــيكم كـــان رفـــدُ المســـلمين
خُلِقُـــوا مـــن مـــاءِ عـــدلٍ وتقـــى وجـــميعُ الناسِ مـــن مـــاءٍ وطـــين
انظرونـــا نقتـــبسْ مـــن نـــورِكم إنّـــه مِـــنْ نـــورِ ربِّ العـــالمين[3]

واتجه بعض الشعراء إلى إفراد قصائد في الحسين سبط النبي الكريم عليه الصلاة والسلام كما صنع أبو عبد الله بن أبي الخصال إذ نظم قصيدتين في مدح الحسين[4] . ودوننا قصيدة لناهض بن محمد الوادي آشي في رثاء الحسين يستحضر فيها حادثة الطف ، وينقم على خصوم الحسين متوعداً إياهم بسوء المآل . يقول فيها :

أبكـــي قتيـــلَ الطـــفّ فـــرعَ نبيِّنـــا أكـــرِمْ بفـــرعٍ للنبـــوةِ زاكـــي

---

(١) الذخيرة ١/١ : ٤٧٨ .
(٢) الذخيرة ١/١ : ٤٤٩ .
(٣) الذخيرة ٢/٢ : ٧٩٣ .
(٤) انظر : ابن خير الإشبيلي . فهرسة ماروواه عن شيوخه . وقف على نسخها وطبعها ومقابلتها على أصل محفوظ في خزانة الاسكويل الشيخ فرنشيسكه قداره زيدين ، وتلميذه خليان ربارة طرغوه . ط ٢ . منشورات المكتب التجاري بيروت ، مكتبة المثنى بغداد . مؤسسة الخانجي ـ القاهرة ، ١٩٦٣م ، ص ٤٢١ .

ويـــلٌ لقـــومٍ غـــادروه مضـــرّجاً بدمائـــه نِضْـــواً صـــريعَ شـــكاكِ[1]

وأطلت الروح الشيعية في مدائح عصر الموحدين نظراً للقوة النسبية التي حظي بها الاتجاه الشيعي في هذا العصر حتى أفردت له كتب ودواوين ؛ فقد أفرد ابن الأبار كتاباً في مراثي الحسين . وهو كتاب « معادن اللجين في مراثي الحسين » [2] ، كما صنف كتاباً آخر وسمه بـ « درر السمط في خبر السبط » . ولكن يلوح أن الموقف المتحفظ من هذا التيار الشيعي ظل قائماً في هذه العصور الأندلسية المتأخرة وأنّ الهجوم عليه ظلّ عاتياً ؛ فقد برئ المقري من نزوع ابن الأبار الشيعي ، فقال معلقاً على فصول من كتابه « درر السمط » : ((وهو كتاب غاية في بابه ، ولم أورد منه غير ماذكرته ،لأن في الباقي ماتُشم منه رائحة التشيع ، والله سبحانه يسامحه بمنّه وكرمه))[3] . وقد تبدّى النَفَس الشيعي في مدائح عصر الموحدين في ((شيوع روح الغلو والمبالغة ، واتسامها بالروح التومرتية وتعاليمها التي كانت تبطن شيئاً من التشيع ، وتغذية الممدوح بصور ومعانٍ دينية مستوحاة من قصة موسى عليه السلام أغلب الأحيان))[4].

وتبدى هذا المسلك لدى الشاعر الرصافي البلنسي الذي كان يسرف في تعظيم الممدوح وإدنائه من مرتبة النبوة ، وخلع صفات الألوهية عليه على نحو شبيه بمسلك ابن هانئ . فهاهو ذا يحيط ممدوحه ابن همشك بآيات القداسة . يقول :

لمحلِّـــكَ الترفيـــعُ والتعظـــيمُ ولوجهَـــكَ التقـــديسُ والتكريـــمُ

---

(١) نفح الطيب ٥/٧٠، ٧١ .

(٢) نفح الطيب ٤/٣٢٠ . نقلاً عن الغبريني في « عنوان الدراية » الذي أثنى على كتاب ابن الأبار هذا .

(٣) نفح الطيب ٤/٥٠٦ .

(٤) السعيد . دكتور محمد مجيد ، الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس . الجمهورية العراقية . منشورات وزارة الثقافة والإعلام . دار الرشيد للنشر . طبع في مطابع الرسالة . الكويت . ١٩٨٠م ، ص ١٠٩ .

ولراحتيـــك الحمـــدُ في أرزاقِنَـــا والرزقُ أجمـعُ منـهما مقسـومُ [1]

ويسوق في مديحه لعبد المؤمن عند نزوله بجبل الفتح الإشارات الدينية إلى قصة النبي موسى عليه السلام مشاكلاً بينها وبين الحدث الذي يتغنى به . يقول :

لو جئتَ نارَ الهدى منْ جانبِ الطـورِ قبسْتَ ماشئْتَ من علمٍ ومـن نـورِ
منْ كلِّ زهـراءَ لم تُرفـعْ ذؤابتُهـا لـيلاً لسـارٍ ولم تُشْـبَبْ لمقـرورِ
مازال يُقضمها التقوى بـموقـدها صـوّامُ هـاجرةٍ قـوّامُ ديجـورِ
حتى أضاءَتْ من الإيـمانِ عن قـبسٍ قدْ كانَ تحتَ رمادِ الكفرِ مكفـور[2]

أما الإشارات الشيعية ضمن معاني الشعر المختلفة فكانت قليلة نظراً لقلة المورد الشيعي العام في الشعر الأندلسي . وهي لاتخرج عن التمثل بأسماء بعض الأعلام ومواقفها البارزة على سبيل التظرف ، أو إبراز العلم الواسع ، أو الإفصاح عن ميل شيعي . انظر هذا التدفق الشيعي الجارف ، والحرقة الخالدة على مصرع الحسين في سياق وصف ابن هانئ سيف يحيى بن علي :

لله أيُّ شـهابِ حـربٍ واقـدٌ صحبَ ابـنَ ذي يـزن وأدرك تبَّعـا
في كفّ يحيى منـه أبـيضُ مرهـفٌ عـرف المعـزَّ حقيقـةً فتشـيّعا
وجرى الفرندُ بصـفحتيه كأنـما ذكـر القتيـلَ بكـربلاءَ فـدمّعا[3]

ومن ذلك قول الشاعر الرمادي يستلهم الحدث التاريخي في سياق معاني الرثاء التقليدي . يقول في رثاء البلدي الخباز :

أنـا إنْ رمْـتُ سـلّوا عنـكِ يـاقرةَ عـيني
كنـتُ في الإثمِ كَمَـنْ شـا ركَ في قتـلِ الحسـينِ
لـكِ صـولاتٌ علـى قلـ ـبي دلـيلاتٌ لحَـيْني
مثـلَ صـولاتِ عليّ يـومَ بـدرٍ وحـنينِ [4]

---

(١) ديوانه ص ١٣١ .
(٢) ديوانه ص ٧٧، ٧٨ .
(٣) ديوانه ص ٣٩٦ .
(٤) يتيمة الدهر ١٠١/٢ .

وهذا لسان الدين بن الخطيب يستغل فداحة حادثة كربلاء في التهويل من سوء جزاء غرناطة له ، مما استشف منه محقق ديوانه عطفاً على الشيعة[1]. يقول :

جزتْني غرناطةٌ بعدما جلوتُ محاسنَها بالجلا
ولم تُبقِ جاهاً ولا حرمةً ولم تُبقِ مالاً ولا منزلا
كأنّي انفردتُ بقتلِ الحسينِ وجرّدتُ سيفي في كربلا [2]

ويلوح هذا النزوع الشيعي لدى لسان الدين في إضفاء هالة من القداسة على زعيم دعوة الموحدين ذوي الهوى الشيعي . يقول مخاطباً أحدهم هو «عامر ابن محمد الهنتاني» :

تقول لي الأظعانُ والشوقُ في الحشا لهُ الحكمُ يُمضي بينَ ناهٍ وآمرِ
إذا جبلَ التوحيدِ أصبحتَ قارعاً فخيِّمْ قريرَ العينِ في دارِ عامرِ
وزُرْ تربةَ المعصومِ إنّ مزارَها هو الحجُّ يمضي نحوه كلُّ ضامرِ[3]

وهكذا لم يكن صوت التشيع عالياً في شعر الأندلس فيما خلا شعر ابن هانئ الذي كان مورداً هامًّا لأفكار التشيع ونظرياته . أما جمهرة الشعر الشيعي الأندلسي فلا تخرج عن التغني بالنسبة إلى البيت النبوي الطاهر ، أو ترداد بعض الأفكار الشيعية البارزة العامة .

١٠- الفلك :

تجلت المادة العلمية الفلكية في الشعر الأندلسي في اتجاهين : الموقف من علم الفلك ، والإشارات الثقافية الفلكية . وقد كثرت الإشارات المستقاة من علم الفلك والتنجيم كثرة نمّت على خصوصية هذا العلم في بيئة الأندلس ، وعلى وضع المشتغل به فيها .

---

(١) انظر : ديوانه ٧٧٣/٢ هامش رقم (٥١) . (٢) ديوانه ٧٧٣/٢ .
(٣) ديوانه ٤٢٧/١ . ويقصد بالمعصوم المهدي بن تومرت . والمعصوم لقب يطلق عليه تشبهاً بأئمة الشيعة الإمامية .

أما الموقف الشعري من الفلك والتنجيم فاتسم على العموم بالتحفظ والإنكار . وطبيعي أن يقترن هذا الموقف الشعري بالموقف الأندلسي العام من الفلك والتنجيم . وقد مرّ بنا أن الأندلسيين قرنوا كراهة الفلسفة بكراهة التنجيم، ولاحقوا من يشتغل بالتنجيم ، كما اضطهدوا من ينصرف إلى الفلسفة[1] .

لكن هذا الموقف لم يمنع طائفة من الأندلسيين من الخوض في علم النجم والفلك ، بل استطلع بعضهم أحداثاً مهمة به ؛ فقد روى ابن حيان أن الشاعر الغزال ((أنذر بهلك نصر (الخصي) هذا عن طريق النجم قبل وقوعه بمدة))[2]. وعلى ذلك أفصح العديد من شعراء الأندلس ، وينتمي معظمهم إلى الاتجاه المحافظ ، عن إنكارهم للعلم الفلكي في سياق رفضهم بعض الأفكار العلمية ، وعدائهم عناصر الثقافة الجديدة ، والنيل من أصحابها . وفي مقدمة أولئك ابن عبد ربه الشاعر ذو الثقافة المحافظة الذي هاجم علم النجوم في أكثر من مناسبة[3]، وفنّد آراء أصحابه ، ودفع حججهم ، وكذّب توقعاتهم . يقول :

فأينَ الزيجُ والقانو نُ والأركندُ والكمَّهْ[4]

---

(١) انظر : نفح الطيب ٢٢١/١ .

(٢) يقول الشاعر الغزال في ذلك :

قل للفتى نصر أبي الفتح ... إنَّ المقاتل حلّ بالنّطح
وأرى النحوس له مساعدةً ... فانظرْ لنفسك واقبلن نصحي
ووجدتُ ذلك إن حسبتَ له ... مما يدل على غلا القمح
ونزولُ أمر لاأفوه به ... لو كان يبلغ بي إلى الرّبح

ديوانه ص ٤٤ .

(٣) انظر : ديوانه ص ٣٦، ٣٧ ، ١٥٧ .

(٤) الزيج والقانون : علم تتعرف به مقادير حركات الكواكب السيارة ومعرفة منفعة كل واحد من الكواكب السبعة بالنسبة إلى فلكه وإلى فلك البروج ، وانتقالاتها ، ورجوعها. الأركند والكمه : كتابان هنديان يبحثان في أحكام النجوم ترجما إلى العربية في أوائل العصر العباسي .

وأيـــنَ الســـندُ هنـــدُ البـــا طـــلُ الجـــدول هـــل ثَمَّـــهْ[1]

ســـوى الإفـــكِ علـــى اللهِ تعـــالى مُنشـــرِ الرمَّـــهْ[2]

وعلى هذا النحو يسلّم أمية بن أبي الصلت اللهَ تعالى تصريف الأمور بعيداً عن النجوم والكواكب . يقول :

لاتـــرجُ في أمـــرِك ســـعدَ المشـــتري ولا تخـــفْ في قربِـــهِ نحـــسَ زُحـــل

وارجُ وخَـــفْ ربَّهمـــا فهـــو الـــذي ماشاءَ من خيرٍ ومـــن شـــرٍّ فعَـــلْ[3]

ومع أن الحاكم الأندلسي كان في العديد من الأحيان يؤمن بالتنجيم ، ويصطنع في بلاطه المنجم الذي كان يستطلع الأحداث يلوح أن هذا المنجم كان يقابَل بكثير من التأنيب والتهكم بعلمه إذا ماخابت توقعاته ، وأخطأت مزاعمه كما جرى مع المنجم ابن عزرا الذي استطلع احتباس الغيث مدة طويلة ، وما لاقاه من سخرية ابن عبد ربه كما رأينا . وهذا أحد المنجمين في بلاط المعتمد العبادي هو أبو بكر الخولاني تكذب تكهناته في أحداث الحروب والنصر[4] . مما جعله يلوذ بالفرار من وجه مولاه الذي رماه بسهام التهكم المبطن بالمرارة والغيظ ، واستشفاف المصير القاتم . انظر هذه الأبيات الطريفة التي كتبها المعتمد إلى هذا المنجم عقب استيلاء المرابطين على إشبيلية . وهي ((هجاء مسلّ في إيقاع خفيف الظل ينضح قلقاً سوف تبرّره الأحداث تماماً))[5]. يقول :

أرمـــدْتَ أمْ بنجومِـــكَ الرّمَـــدُ قـــدْ عـــادَ ضِـــدّاً كـــلُّ ماتَعِـــدُ

---

(١) السند هند : كتاب فلك هندي نقل إلى العربية أيام أبي جعفر المنصور .

(٢) ديوانه ص ١٧٨ .

(٣) ديوانه ص ١٠٥ .

(٤) كان المعتمد يؤمن بالتنجيم على غرار الكثير من معاصريه ، وقد اصطحب معه منجمه هذا عند بدء معركة الزلاقة ، فكان يخبره بطالع الوقت قبل نشوب القتال . انظر : ديوان المعتمد . هامش رقم (١) ص ٨٧ .

(٥) بيريس . هنري . الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ص ٢٧٥ .

هـــلْ في حســـابِكَ ماتؤمِّلُـــهُ أمْ قـــدْ تصـــرَّم عنـــدَكَ الأمـــدُ
قـــد كنـــتَ تـــهمسُ إذْ تخـــاطبُني وتخـــطُّ كرهـــاً إنْ عصَـــتْكَ يـــدُ
فـــالآنَ لاعـــينٌ ولا أثـــرٌ أتـــراكَ غيَّـــبَ شخصَـــكَ البلـــدُ
وتـــراكَ بالعـــذراءِ في عـــرسٍ أمْ إذْ كـــذبْتَ ســـطا بِـــكَ الأســـدُ
المُلْـــكُ لايُبقـــي علـــى أحـــدٍ والمـــوتُ لايَبْقـــى لـــه أحـــدُ [1]

ومن اللافت أن ينصّ شاعر متأخر على أن هذا الموقف في رفض مزاعم الفلك والتنجيم، وإسناد علم الغيب إلى الله وحده إنما هو موقف التيار القديم. فهذا لسان الدين بن الخطيب ينص على ذلك بين يدي شعر يعلق فيه على الحادثة المتجددة. حادثة خطأ مزاعم المنجمين. يقول: ((وأنشدته وقد مَنَّ الله عز وجل بالغيث بعد الأزمة والجهد، وهو من الشعر القديم حسبما يظهر من غرضه:

والمرجفـــونَ يلبِّـــدونَ عجاجـــةً رجـــماً بغيـــبٍ أُخْفيَـــتْ أقـــدارُهُ
حـــتى إذا قـــالوا تســـعّرَ ثاقـــبٌ عـــمّ الســـماءَ بلفحِـــهِ استســـعارهُ
أذكى شعاعَ الشـــمسِ نـــارُ قرانِـــهِ وهـــو الـــذي رُصـــدتْ لـــه أدوارُهُ
والعلـــمُ علـــمُ اللهِ جـــلَّ جلالـــه والعبدُ إدراكُ القصـــورِ قُصـــارُهُ)) [2]

وكثرت الإشارات الثقافية المستقاة من علم الفلك ضمن معاني الشعر المختلفة. وهي إشارات بسيطة لايخرج معظمها عن تضمين أسماء الكواكب، واستيحاء دلالاتها في تعزيز معاني الشعر. وكان الشاعر يرمي من هذه الإشارات إلى الإدلال بعلمه، وسعة ثقافته. فهذا الشاعر الغزال ذو الثقافة الفلكية يستحضر كواكب السماء مقارناً بينها وبين المحبوب الحسن. يقول:

نجمٌ من الحُسْنِ مـــايجري بِـــهِ فلـــكٌ كأنّـــه الـــدرُّ واليـــاقوتُ في الـــنَّظمِ

(١) ديوانه ص ٨٧.
(٢) ديوانه ١/٣٧٠-٣٧٢.

ذاكَ الذي حاز حُسْناً لانظيرَ لـه كالبدرِ نوراً عـلا في مـنزلِ الـنعمِ
وقدْ تناظَر والبرجيس في شرفٍ وقارنَ الزهرةَ البيضاءَ في تـومِ[1]
فـذاك يُشبهه في حُسْنِ صورتِه وذا يزيُد بحظّ الشعرِ والقلمِ[2]

ويوفق ابن دراج إذ يصهر المادة الفلكية بالمعنى الشعري النابض بالشعور الغامر . يقول في معنى الركون إلى الراحة بعد عناء الشتات والفرقة :

وأنّس شملٌ بالتفرُّق موحشٌ وحنَّ خليطٌ بالصبابةِ حنّانُ
ورُدّ جماحُ الغيِّ من غرب شأوِه وبُرِّد قلبٌ بالحفيظةِ حرّانُ
وفازَتْ قداحُ المشتري بسعودها وسالَمَ بهرامٌ وأعتبَ كيوانُ[3]

ويستلهم حسان بن المصيصي العلم الفلكي استلهاماً رشيقاً سائغاً بعيداً عن الافتعال والإقحام . يقول في سياق المديح :

تنهاهُ عفَّتُهُ عنْ أمرِ بطشتِه فالمشتري عندَهُ قاضٍ على زحلِ[4]

وهذا ماحدا بابن بسام إلى التعقيب على بيته هذا بقوله : ((وهذا البيت أيضاً من مليح المنظوم ، وله اختصاص حسن بأحكام النجوم))[5] مما يشي بإعجاب الناقد الأندلسي ـ حتى المحافظ منه ـ بهذه اللمحات التي تفصح عن إلمام بهذا العلم ، وحسن صياغته في الشعر . ويمثّل لسان الدين بن الخطيب لعلياء الممدوح بالحقيقة الفلكية . يقول :

ولا زلْتَ قطباً تستديرُ بهِ العُلى كما دارتْ الأفلاكُ حولَ المحدَّد[6]

---

(١) البرجيس : المشتري . التؤم : تسهل المولود مع غيره في بطن واحد .
(٢) ديوانه ص ٧٤، ٧٥ . (٣) ديوانه ص ٥٨، ٥٩ .
(٤،٥) الذخيرة ٢/١ : ٤٣٨ .
(٦) ديوانه ١/٣١٤ . والمحدد : الفلك الأعظم . انظر التهانوي . كشاف اصطلاحات الفنون . حققه : دكتور لطفي عبد البديع . ترجم النصوص الفارسية دكتور عبد النعيم محمد حسنين . راجعه الأستاذ أمين الخولي ٢/٢٥ .

واستلهم الشاعر الأندلسي المادة الفلكية على نحو أدنى إلى الإقحام وإبراز العلم . فهذا ابن دراج يعرض علمه الفلكي إذ يشقّق في معنى امتداد الليل ، مستقصياً أسماء المجموعة الفلكية ، مشبعاً شغفه بترداد المعنى وتفريعه من جهة ، وولوعه بحشد الصور الشعرية واقتناصها من جهة أخرى . يقول مستشرفاً صباح الأمل الواعد القادم من غيابات الدجى واليأس :

فإذا رأيتَ النجمَ يبدي أفقَه ... منه بقيةُ جمرِ نارِ المصطلي
وتخلّفَ العيُّوقُ فهو كأنّه ... سارٍ تضلّلَ في فضاءٍ مجهلِ[1]
وتعرّض الدّبران بينَ كواكبٍ ... مزَقٍ كسِربِ قطًا ذُعِرْنَ بأجدلِ[2]
وكواكبَ الجوزاءِ تهوي جُنّحاً ... مثلَ الخوامسِ قدْ عدلْنَ لمنهلِ[3]
وكأنما الشِّعْرى سراجُ توقُّدٍ ... وقفٌ على طُرُقِ النجومِ الضُّلَّلِ[4]

ويلوح الجنوح إلى التعالم في مقابلة ابن الحداد بين طوري الشباب والشيخوخة من العمر الإنساني . يقول :

والشمسُ في الحملِ الذي هو أوّلٌ ... تسمو كما تنحطُّ في الميزانِ[5]

١١- الطب :

وهو من العلوم التي حظيت بإقرار الأندلسيين وتقديرهم إذ أيقنوا بضرورته ، بل قدّمه بعضهم على العلوم قاطبة . كما اشتغل بعضهم بالطب

---

(١) العيُّوق : نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن .

(٢) الدبران : كوكب أحمر على إثر الثريا ، وبين يديه كواكب كثيرة مجتمعة . والأجدل : الصقر .

(٣) الجوزاء : برج من منازل الشمس . والخوامس : الإبل التي ترعى ثلاثة أيام ، ثم تورد الماء في اليوم الرابع غير اليوم الذي شربت فيه .

(٤) الشعرى : كوكب نيّر يطلع بعد الجوزاء ، وطلوعه في شدة الحر . ديوانه ص ٤١٧، ٤١٨ .

(٥) ديوانه ص٢٨٦. والحمل : أول بروج الفلك . والميزان : اسم برج من بروج السماء .

وتمكن منه ، وأفصح العديد منهم عن ثقافة طبية ، فبرزت في أشعارهم إشارات أغلبها في معرض التظرف والتهكم .

ومن الطريف أن يجد الشاعر في هذا العلم ركناً شديداً يأوي إليه خشية الوحدة ، ودواء يخفف عنه مرارة الوحشة . وهو ماأفصح عنه أحد الأندلسيين إذ اتخذ من أعلام الطب ندماء ومجالسين ، والتمس في مؤلفاتهم نفع الأجساد والنفوس . فهذا سعيد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد ربه ابن أخي أحمد ابن عبد ربه و ((كان طبيباً نبيلاً شاعراً ، وله في الطب رجز أحسن فيه دلّ فيه على تمكّنه من العلم ، ودرايته بمذهب القدماء . . وكان متقدماً في صناعته . وفُصد في بعض الأيام ، فبعث إلى عمه أحمد بن محمد بن عبد ربه الشاعر الأديب أن يحضره ، فلم يجبه إلى ذلك ، وأبطأ عنه فكتب إليه :

لـــمّا عـــدمتُ مؤانســاً وجليســا نادمْـــتُ بقراطـــاً وجالينوســـا
وجعلـــتُ كتبَهمـــا شـــفاءَ تفـــرُّدي وهـــما الشفاءُ لكلِّ جـــرحٍ يُوســـى
ووجـــدْتُ علمَهمـــا إذا حصّـــلْته يُذكي ويحيـــي للجســـومِ نفوسَـــا[1]

ولا يضير هذا المسلك لديه تهكم عمه الأديب ذي الاتجاه المحافظ وهجاؤه الشخصي له ، إذ ((أوصل الأبيات إلى عمه أحمد ، فجاوبه بأبيات . . يقول فيها :

ألفيـــتَ بقراطـــاً وجالينوســـا لايـــأكلان ويـــرزآن جليســـا
فجعلـــتَهُمْ دونَ الأقـــاربِ جُنَّـــةً ورضيتَ منـــهمْ صـــاحباً وجليســـا
وأظنُّ بخلَـــكَ لايُـــرى لـــكَ تاركًـــا حـــتى تنـــادمَ بعـــدَهم إبليســـا))[2]

وتفصح الرواية السابقة عن بروز بعض المنظومات في علم الطب تخوض في مبادئه وأصوله كما صنع هذا الطبيب الشاعر في رجزه ، كما تنم على

(٢،١) ديوان ابن عبد ربه ص ١١٠، ١١١ .

مظاهر صراع بين ممثلي التيارين الشعريين الأساسيين طريقة العرب ، ومذهب المحدثين .

ومن اللافت أن يمعن شاعر في تفضيل علم الطب ، فيقدمه على العلوم جميعاً بما فيها علم الشريعة . بل إنه يغلو حين يعد بقية العلوم محض باطل مستنداً في ذلك إلى آراء السابقين ذاهباً إلى تكامل الصلة بين الطب والشرع ؛ إذ لايصحّ علم الشرع إلا بصحة البدن ، وأن علم الشرع جسد روحه الطب . والحق أنه منزع حضاري في تقدير المنهج العلمي في أساليب الحياة ، والدعوة إلى اعتماده . فضلاً عن دلالته على إيثار التوازن بين العلم والدين في أنماط الحياة الحضارية ، كما ينم على نشاط علم الطب وازدهاره آنذاك . يقول السميسر نازعاً منزع المحدثين :

كُلُّ علمٍ ماخلا الشّرْ عَ وعلمَ الطبِّ باطلْ
غيرَ أنَّ الأولَ الطبُّ على رأيِ الأوائلْ
هل تمامُ الشرعِ إلاّ أنْ يكونَ الجسمُ عامِلْ
فإذا كانَ علىلاً بطلتْ تلكَ العوامِلْ (١)

ويزجي السميسر نصائحه الطبية للعليل في الأخذ بأوامر الطبيب في اتباع الحمية ، ويحذره من مغبة الإقبال على الطعام المضر . يقول :

يا آكلاً كلَّ مااشتهاهُ وشاتمَ الطبِّ والطبيب
ثمارَ ماقد غرسْتَ تجني فانتظرِ السقمَ عنْ قريبِ
يجتمعُ الداءُ كلّ يومٍ أغذيةُ السوءِ كالذنوبِ (٢)

ويستلهم أبو عبدالله بن مسعود أجواء علم الطب وتقاليده في منزعه الهزلي ، فيتخيل نفسه طبيباً ماهراً وسط سوق عكاظ يصيح في دكان يعلن عن حذقه

---

(١) السميسر . حياته وشعره . الكيلاني . دكتور حلمي ص١٤٦، والذخيرة ١/٢: ٨٩٢ .
(٢) السميسر . حياته وشعره ص ١٣١ .

بأسرار الطب وعقاقيره ، وتفوقه على السحرة في مسلك يذكّر بأبطال المقامات المكدين في سعيهم إلى الرزق . يقول :

فلـــــمْ أزلْ في عكـــــاظ أصـــــيحُ في دكّـــــانِ
هـــــذا الطبيـــــبْ المـــــداوي هـــــذا الحكـــــيمُ المعـــــاني
فيـــــالَعوقي وكـــــتبي وكحلـــــيَ الأصـــــبهاني
إذا تكحَّلْـــــتَ منْـــــهُ يومـــــاً فلســـــتَ تـــــراني (١)

ومن الطريف أن تضم المطارحات الشعرية طرفاً من الاستشارة الطبية على النحو الذي تصوغه هذه المحاورة بين أديبين كتب الأول منهما إلى الثاني يطلب منه دواء لعلّته ، فأجابه هذا مخطّئاً صاحبه في تخيُّر الدواء ، ومقدّماً العقار الشافي . يروي ابن بسام : ((وكتب إليه ذو الوزارتين أبو عامر بن الفرج :

إنْ كـــانَ عنـــدَكَ شـــيءٌ مـــن الـــدَّيا حيلـــونِ
فابعـــثْ بِـــهِ تتعـــوّضْ منْـــهُ بشـــكرٍ ثمـــينِ
فـــإن عنـــدي خُراجـــاً مـــن بابـــةِ التلـــيينِ ...

فأجابه أبو الفضل [ابن حسداي] :

يآخـــذاً بـــاليمينِ في المجـــدِ شـــتّى الفنـــونِ
ســـلّمْ لعلمـــيَ في الطـــ ـــبّ والقرابـــاذينِ
لاينبغـــي أن يُـــداوى الـــ ـــخراجُ بـــالتليينِ
حـــتى يقـــوَّم ردعُ الـــ أخـــلاطِ بالتســـكينِ
وقـــد بعثـــتُ شـــراباً يُعـــزى إلى الزَّرجـــون
يغـــني إذا ذقتَـــه عـــن شـــرابِ الافســـنتينِ (٢)

---

(١) الذخيرة ١/١ : ٥٥٥ .
(٢) الذخيرة ١/٣ : ٤٨٦، ٤٨٧ .

ويستغل الشاعر الجزار السرقسطي أدوات علم الطب وعقاقيره في تحضير هذه الوصفة الطبية التي يقدمها لمهجوّه البرجي ويرمي منها إلى التعريض بغبائه وحمقه ونقائصه الخلقية الأخرى في سياق يقوم على التهكم والغمز المألوفين في شعر الهجاء . يقول :

فخذْ أولاً بسفايحِ العقلِ خالصاً ... من النّوك واجردْ زغبه وتأنّقِ[1]

وأنقعْهُ بعدَ الرضّ يوماً وليلةً ... ليرطب في ماءِ الحياءِ المروّقِ[2]

وأحكِمْ على ماءِ النباهةِ طبخَه ... قليلاً قليلاً واحذرِ العنفَ وارفقِ

وخُذْ من إهليلجِ الفهمِ والذكا ... ومن فيتمون الفطنةِ الأحمرِ النقي[3]

وألقِ على الماءِ العقاقيَر كلّها ... غباراً وضرّبْهُ بها يتصفَّق

وخذ منه كأساً كلّ يومٍ على الطوى ... وداوم على هذا العلاج توفَّقِ[4]

١٢- الرياضيات :

أفصح العديد من شعراء الأندلس عن إلمامهم بطرف من علم الرياضيات ، وبرزت الإشارات الرياضية لديهم في سياق من التملح والتظرف كما في إشارات العلوم الأخرى ، أو بغية إبراز غزارة العلم ، والتباهي بسعة الثقافة . وتراوحت هذه الإشارات بين البساطة والتعمق . وعبّرت هذه اللمح الرياضية ـ على العموم ـ عن نشاط هذا العلم في الأندلس في عصور متفرقة ، وكانت مظهراً من مظاهر التيار المحدث في الشعر . فهذا شاعر يتظرف إذ يقرن موقف التطفل بالشكل الهندسي . يقول ابن وهيب :

---

(١) سفايح : عروق في داخلها شيء كالفستق بحموضة وحلاوة . نافع للمالينخوليا والجذام . النوك (بالضم والفتح) : الحمق .

(٢) الحياء : الحكمة . المروّق : المصفى .

(٣) الإهليلج : بفتح اللام الثانية وبكسرها : واحدته إهليلجة : وهو ثمر معروف منه أصفر ومنه أسود . الفيتمون : فارسي .

(٤) روضة المحاسن . ديوان الجزار السرقسطي ص ١٣٢، ١٣٣ .

ومائـــــدةٍ جســـــمُها لطفُـــــهُ يـــدلُّ علـــى صـــفقةٍ خاســـرَهْ
فتلـــكَ لنـــا قـــدْ غـــدَتْ نقطـــةً ونحـــنُ عليهـــا نُـــرى دائـــرهْ[1]

وهذا شاعر آخر يرى الروض مهندساً نهج نهج إقليدس حين صاغ السوسن بشكله الهندسي البديع . يقول أبو بكر بن القوطية :

أمـــا تـــرى الـــروضَ حســـا بيَّـــا نَحَـــا إقليدسَـــهْ
فصـــوّر السوســـنَ مـــنْ دائـــرةٍ مسدّسَـــهْ [2]

واستخدم ابن الحداد ذو المعارف الواسعة المادةَ الرياضيةَ في الإلغاز والتعمية راميا إلى الإدلال بسعة علمه ـ على غرار صنيعه في إشاراته العلمية الأخرى ـ في شعر قصد منه إبراز المهارة بعيداً عن صدق العاطفة وتدفقها . يقول في اسم محبوبه :

صُنْتُ اســمَ إلفــي فــدأباً لاأسمّيــهِ ولا أزالُ بإلْغَـــازي أُعَمّيـــهِ
وصاحبي عـــدديٌّ قـــد رمـــزتُ بـــهِ بذكرِ أعـــدادِ مـــاتحوي مبانيـــهِ [3]
فجـــذرُ أولـــهِ رُبْـــعٌ لآخـــرِهِ وجَـــذْرُ آخـــرِهِ ربـــعٌ لثانيـــهِ
وإنّ ثانيَـــهُ خمـــسٌ لثالثـــهِ فافهمْ فقدْ لاحَ للأفهـامِ خافيـهِ [4]

ويتملح ابن جابر بمصطلحات علم الحساب في معاني الحب والوجد . يقول :

قســمَ القلـــبَ في الغـــرام بلحـــظٍ يضربُ القلبَ حين يرســلُ ســهمَهْ

---

(١) ابن الكتاني . كتاب التشبيهات ص ٢٥٥ .

(٢) البديع ص ١٣٨ .

(٣) العددي : نسبة إلى العدد ، والهاء في مبانيه تعود على اسم نويرة . يقول إن اسم محبوبتي يوافق بعض الأعداد . لذلك أرمز به بذكر مايوافقه من أعداد .

(٤) ديوانه ص ٣٠٨ . وانظر أيضاً أنموذجاً لإبراز علمه الهندسي في نص يعدد فيه الأشكال الهندسية لأحد القصور . ديوانه ص ٢٧٠، ٢٧١ .

هـــذه في هـــواهُ يـــاقومُ حـــالي ضاعَ قلبي مابينَ ضـــربٍ وقســـمَهْ [1]

ويشتط الشاعر أحياناً في هذا المسلك فيخرج به إلى السماجة والسخف . يقول أحدهم :

غـــزالٌ قـــد غَـــزَا قلـــبي بألحـــــاظٍ وأحـــــداق
لـــه الثلثـــانِ مِـــنْ قلـــبي وثلثـــا ثلثِـــهِ البـــاقي
وثلثـــا ثلـــثِ مـــايبقى وبـــاقي الثلـــثِ للســـاقي
وتبقـــى أســـهمٌ ســـتٌّ تقسَّـــمُ بـــينَ عشّـــاقِ [2]

ويقتبس عبد الكريم القيسي مسائل الحساب في حديثه عن خيبته من الإخوان والصحب . يقول :

حصلتُ من الأحوالِ أحوالِ جـيرتي ببسطةَ من علمِ الحسابِ على شـرحِ
ففي الجمعِ دهراً لم أزلْ منْ حقـوقهم وهُمْ دونَ ذنبٍ منْ حقوقي في الطـرحِ [3]

وعلى هذا النحو تتنامى لواعج الشوق في صدر لسان الدين بن الخطيب كما تتضاعف الأعداد بالأصفار . يقول :

تـــزدادُ أشـــواقي إذا يـــومٌ خـــلاَ كتَضَـــاعُفِ الأعـــدادِ بالأصـــفارِ [4]

ويلقي هذا التكلف بلسان الدين بعيداً عن حدود اللياقة إزاء الجناب النبوي الطاهر . يقول في إحدى ميلادياته :

صلَّى عليكَ إلهُ العـرشِ ماضـحكَتْ مباســمُ الزهــر في ثغــرِ الأفــانينِ
وألــفُ ألــفِ صــلاةٍ لانفــادَ لهَــا مضروبةٌ في ثـــمانِ ألـــفِ تســعينِ
عليـــكَ يـــاخيرَ خَلْـــقِ اللهِ قاطبـــةً وألفُ ألفِ سلامٍ في ثـــمانيـــنِ [5]

(١،٢) نفح الطيب ٦٨١/٢ .
(٣) ديوانه ص ٢٨٠ .
(٤) ديوانه ص ٣٦٨ .
(٥) ديوانه ٦١٣/٢ .

١٣- الكيمياء :

وبرزت إشارات في علم الكيمياء تنبئ عن اشتغال طائفة من الأندلسيين ـ ومنهم شعراء ـ بهذا العلم ، وتفصح عن بعض المواقف منه . من ذلك قول القاسم بن الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط يغضّ من هذا العلم الذي أفنى فيه عمره دونما غناء :

شغلتُ بالكيمياءِ دهري ... فلمْ أفِدْ غيرَ كلِّ خُسْرِ
إتعابُ فكرٍ خداعُ عقلٍ ... فسادُ مالٍ ضياعُ عُمْرِ[١]

ويشير ابن دراج إلى إمكانية الخطأ في هذا العلم في معرض التنويه بشأن الممدوح . يقول :

وأخطأَ سيرُهُمْ أفقَ ابنِ يحيى ... ليخطئَ علمُهُمْ بالكيمياءِ[٢]

وقرن بعضهم حديث الكيمياء بحديث الفلك والكواكب . يقول المعتمد :

جاءتْكَ ليلاً في ثيابِ نهارِ ... من نورِهَا وغلالةِ البلاّرِ
كالمشترى قد لفَّ من مرّيخِهِ ... إذ لفَّهُ في الماءِ جذوةُ نارِ
لطفَ الجمودُ لذا وذا فتآلَفَا ... لم يلقَ ضده بنفار
يتخيّرُ الراءون في نعتيهما ... أَصَفَاءُ ماءٍ أمْ صفاءُ درارِي[٣]

---

(١) عمارة . دكتور السيد أحمد . شعر بني أمية في الأندلس ص ٣٦٣ . ونفح الطيب ٥٨١/٣ .

(٢) ديوانه ص ٣٢٥ .

(٣) فسّر هنري بيريس هذه الأبيات بأن المعتمد يشير مع كوكب المشترى إلى القصدير ، ومع كوكب المريخ إلى الحديد ، وأنه يمكن أن يريد بالمادة مادة كحولية من أحماض العصور الوسطى تستخدم في إذابة الحديد والقصدير إذا وُضعا على التنور . انظر : الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ترجمة دكتور الطاهر أحمد مكي ص٢٠٤، ٢٠٥ واعتمد بيريس في هذا التفسير على دوزي .

وأشار ابن سارة إلى قوة تأثير الكيمياء في العناصر حين تغنى بسحر النار المتوقدة ، وفتنة اشتعالها . يقول :

لابنةِ الزندِ في الكوانينِ جمرٌ كالدراريّ في دجى الظلماءِ
خبرّوني عنها ولا تَكْذِبُوني أليديها صناعةُ الكيمياءِ
سَبَكَت فحمها صفائحَ تبرٍ رصَّعْتها بالفضةِ البيضاءِ (١)

ويستخدم لسان الدين بن الخطيب مصطلحات الكيمياء ـ فضلاً عن اسم أحد علمائها ـ في التنويه بفضائل الممدوح على جزيرة الأندلس في منزع التباهي بغزارة العلم . يقول :

صدّقْتَ للآمالِ صنعةَ جابرٍ وكفَيْتَها التشميعَ والتشميسَا (٢)
والحَلَّ والتقطيرَ والتصعيدَ والتخميرَ والتصويلَ والتكليسَا (٣)

١٤- الشعر الفلسفي :

اتسمت المعاني الفلسفية في الشعر الأندلسي بالقلة والنضوب ، ومبعث هذه القلة في المعاني الفلسفية في الأندلس عوامل عديدة ، لعل أبرزها الموقف الأندلسي من النشاط الفلسفي ، واقترانه بالذوق الأدبي الأندلسي العام ، والواقع الأندلسي الاجتماعي والسياسي . ولقد اصطبغ التيار الفلسفي في المعنى الشعري حيث وُجد بصبغة خاصة في صلته الشعرية بالشعر المشرقي ، وعلاقته بالظروف السياسية والثقافية ، وفي تطور بروزه في المعنى الشعري ، وفي مدى عمقه واقترابه من معاني الفلسفة الشعرية .

---

(١) ابن خاقان . الفتح . قلائد العقيان ص ٢٦٦ .

(٢) يورّي هنا باسم جابر بن حيان من كبار الكيميائيين . التشميع : تليين الشيء وتصييره شمعاً .

(٣) الحلّ : أن تجعل المعقدات مثل الماء . التقطير : مثل صنعة ماء الورد . التصعيد : شبيه بالتقطير . التصويل : أن يجعل الشيء الذي يرسب في الرطوبات طافياً ـ التكليس : أن يجعل جسد من كيزان مطينة ، ويجعل في النار حتى يصير مثل الدقيق . ديوانه ٢/٧٢٦ . هوامش رقم (٥٦، ٥٧، ٥٨) .

أسباب ضعف الشعر الفلسفي :

لعل نضوب الجانب الفلسفي في الشعر الأندلسي يرتد إلى بواعث تتمثل أكثر ماتتمثل في الموقف الأندلسي من الفلسفة ، وصلته بالظروف السياسية الخاصة ، والجانب الديني في الشخصية الأندلسية .

الموقف الأندلسي من الفلسفة :

امتازت الأندلس بموقف خاص من الفلسفة ؛ إذ أنكرها الأندلسيون في مراحل عديدة من تاريخهم ، ورموا مَنْ يشتغل بها بالمروق والزندقة ، فلم تلقَ علوم الفلسفة ، والجدل ، وعلم الكلام الذيوع الذي كان لها في المشرق ، بل واجهت تلك العلوم في معظم الأحيان مقاومة عنيفة ، وأسرف بعض الحكام الأندلسيين في ملاحقة المشتغلين بالفلسفة ، والجدل ، والفلك ، وقاموا بإحراق كتبهم يحرّضهم في ذلك الفقهاء ، إذ ينكرون هذه العلوم لدى الحاكم ، ويدعونه إلى نبذها ، وعقاب مَنْ يخوض فيها ، وإتلاف مصنفاتها[1] .

ولا جرم أن موقف الإعراض عن علوم الفلسفة ، ولا سيما موقف الحكام ، حال بين الكثيرين وبين الخوض في هذه العلوم فضلاً عن استلهام معانيها وأصولها في شعرهم ، فقد شهد التاريخ الأندلسي مراحل كثيرة من محاربة الفلسفة ، وملاحقة من يشتغل بها شدّد فيها الحاكم النكير على أتباع الفيلسوف الأندلسي ومن يقتني كتبه ، بل تعرضت كتب الفلسفة للمصادرة والإحراق كما يذكر المقري في شأن من يُعنى بالفلسفة والتنجيم ؛ يقول : « فإن زلّ في شبهة

---

(١) ربما كان الحاكم الأندلسي ميّالاً إلى علوم الفلسفة ، لكنه كان يحاربها مجاراة للموقف العام المنكر لها ، وتقرُّباً إلى العامة . فقد افتتح المنصور العامري عهده بإحراق كتب الفلسفة التي كانت في خزائن الحكم المستنصر سلِفه تقرباً إلى العامة ، وتقبيحاً لمذهب الحكم لديهم ، وإن كان غير خالٍ من الاشتغال بهذه العلوم في الباطن ، فأحرقها بمحضر خواص العلماء والفقهاء ، وشدّد النكير على مَن وُجد عنده شيء منها . انظر : ابن عذاري المراكشي . البيان المغرب ٤٣٧/٢ ، وصاعد . طبقات الأمم ١٠٢، ١٠٣ .

رجموه بالحجارة ، أو حرّقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة ، وكثيراً ماكان يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إن وجدت))[١] ، فقد لقي مذهب ابن مسرة (- ٣١٨هـ) في الفلسفة الصوفية القائم على الغموض والسرية إنكار الأندلسيين لخروجه عن مألوفهم في التقليد والتسليم ، ولخوضه في الاعتزال[٢] ، فرأوا فيه تفريقًا للكلمة ، وحملوا عليه تجنُّباً لنزعات الفرقة والشقاق[٣]. وهكذا قام الفقهاء بتحريض الخليفة عبد الرحمن الناصر على محاربة هذا المذهب وملاحقة أتباعه ، ((فجرت لهم في ذلك خطوب يطول القول فيها))[٤] ، لأنهم مبتدعون ((فارقوا الجماعة وخالفوا السنة))[٥] ، فأحرقت كتب ابن مسرة زعيمهم على الملأ [٦]، وتواصل تعقب مذهبهم والإيقاع بأصحابه في عهد المنصور العامري الذي أغضى عن ذلك تقرباً إلى العامة والفقهاء[٧] . أما في عصر السلطان المرابطي يوسف بن تاشفين فسعى الفقهاء بأبي الحكم بن برجان (- ٥٣٠هـ أو ٥٣٦هـ) ذي النزوع الفلسفي الباطني إليه ، ورموه بالابتداع ، فانتهوا به إلى السجن ثم الموت ، ومنعوا دفنه أو الصلاة عليه ، فقام أحدهم بدفنه سرًّا[٨].

---

(١) نفح الطيب ٢٢١/١ .

(٢) انظر : ابن الفرضي ، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس . عني بنشره وصححه ووقف على طبعه السيد عزت العطار الحسيني . القاهرة ، ١٩٥٤م ،٤١/٢، ٤٢

(٣) انظر : ابن حيان . المقتبس ٢٠/٥، ٢١ .

(٤) انظر : ابن حيان . المقتبس ٢٤/٥ .

(٥) انظر : ابن حيان . المقتبس ٢٥-٢٩ .

(٦) انظر : النباهي . أبو الحسن . تاريخ قضاة الأندلس . أو المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا . منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة ص ٧٨ .

(٧) انظر : تاريخ ابن الفرضي ٩٧/٢ ، والنباهي . تاريخ قضاة الأندلس ص ٧٨ .

(٨) انظر : محمود . دكتور عبد القادر ـ الفلسفة الصوفية في الإسلام . ط ١ ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٦٦، ١٩٦٧م ، ص ٤٩٢ .

وحين وصلت الأندلس كتب الغزالي أنكرها الأندلسيون ، وعدُّوها كفراً وزندقة ، فحملوا الأمير علي بن يوسف بن تاشفين على الأمر بإحراقها ، فأجابهم الأمير إلى ذلك ، وتوعّد من وُجد عنده شيء منها بسفك الدم ، واستئصال المال[1] . وكذلك قرر الفقهاء لدى هذا الأمير تقبيح علم الكلام ، وتكفير كل من خاض فيه ، فأنكره الأمير ، وأبغض أهله ((فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه ، وتوعد من وُجِدَ عنده شيء من كتبه))[2] . ورأينا أن الحاكم الأندلسي كان أحياناً يؤثر علوم الفلسفة ، والجدل ، والكلام . لكنه كان يحاربها إرضاء لمشاعر العامة ، ومراعاة للتقليد السائد كما صنع المنصور العامري حين أحرق كتب الفلسفة التي كانت في خزائن الحكم المستنصر تقرباً إلى العامة على الرغم من ميل المنصور إلى الفلسفة[3] . وكذلك تنكر الخليفة الموحدي المنصور لعلوم الفلسفة بعيد نصره الباهر في معركة (الأرك) .

ولعل هذا الموقف الرسمي ـ فضلاً عن الموقف الشعبي العام ـ من علوم الفلسفة صرف الكثيرين من الشعراء عن سلوك نهج الفلاسفة ، وعن نظم شعر يفيض بمبادئها ، ويترجم نظرياتها ، وعلى الرغم من الفترات التي كانت تسود فيها الحرية الفكرية ، وتنشط فيها الدراسات العقلية كانت هذه الدراسات مهددة بالأخطار الناجمة عن تغير في مزاج الحاكم الأندلسي ، وفي موقفه من النشاط العقلي ، فكثيراً ماكان ينقلب على هذه العلوم وأصحابها ـ كما رأينا ـ مدفوعاً أو مؤيداً بالعامة والفقهاء بعدائهم الدائم لهذا الضرب من الثقافة . ولما كان الشاعر الأندلسي مرتبطاً في الغالب بالحاكم كان من الطبيعي أن يسعى إلى

---

(١) انظر : المراكشي . المعجب ص ٢٣٧ ، وبالنثيا آنخل جنثالث ، تاريخ الفكر الأندلسي ترجمة دكتور حسين مؤنس . ط ١ . ١٩٥٥م ، ص ٣٦٥، ٣٦٦ مكتبة النهضة المصرية .

(٢) المراكشي . المعجب ص ٢٣٦، ٢٣٧ .

(٣) انظر : ابن عذاري . البيان المغرب ٤٣٧/٢، وصاعد . طبقات الأمم ص ١٠٢، ١٠٣.

إرضائه ، ولو أفضى به ذلك إلى الإغضاء عن نشاطه الذهني ـ إن وجد ـ وتجاهل ثقافته الفلسفية . وعلى ذلك أحجم كثيرون ـ وكان بعضهم من كبار الفلاسفة كابن باجة ، وابن طفيل ـ عن الخوض في النظريات الفلسفية في شعرهم ، ولهذا كله ضعف النزوع الفلسفي في شعر الشاعر الأندلسي إذ ((آثر تنكُّب طريق التفلسف والنظر العقلي لما فيه من مزالق ، وعثرات مميتة))[١] .

ولكن هذا الموقف المعادي للفلسفة لم يكن عامًّا . بل ترجحت الفلسفة بين النشاط والوهن ، فشهدت نشاطاً وتوقداً في مراحل عديدة من تاريخ الأندلس سادت فيها الحرية والتسامح ، وتوفر الحاكم على الاحتفال بها ، وتقريب أصحابها . فقد شجع الحكم المستنصر في سياق شغفه بجمع الكتب ، وسعيه إلى تكامل الثقافة الأندلسية ـ جمعَ كتب الحكمة والمنطق ـ فضلاً عن الطب ، وأباح للناس الاطلاع على علوم الأوائل والنظر فيها[٢] . وحظيت الفلسفة وعلوم الأوائل في عصر الطوائف بالقبول ، وتنفّس المشتغلون بها نسائم الحرية الفكرية[٣] ، فأولع أمير سرقسطة المقتدر بن هود بالفلسفة والرياضة ، وكان ابنه المؤتمن يشجع هذه العلوم ، ويسهم في التصنيف فيها[٤] . وعلى ذلك ظهرت مؤلفات في المنطق ، وبرز أفراد خاضوا في الفلسفة الإلهية كابن السيد البطليوسي ، وابن باجة .

---

(١) السعيد . دكتور محمد مجيد . الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس . الجمهورية العراقية ـ منشورات دار الثقافة والإعلام . دار الرشيد للنشر . سلسلة دراسات (١٦١) طبع في مطابع الرسالة ـ الكويت ، ١٩٨٠م ، ص٢٩٠ .

(٢) انظر : صاعد . طبقات الأمم ص ١٠٢ .

(٣) يقول صاعد : «فلم تزل الرغبة ترتفع من حين في طلب العلم القديم شيئاً فشيئاً ، وقواعد الطوائف تتمصّر قليلاً قليلاً إلى وقتنا هذا . فالحال بحمد الله أفضل ما كانت بالأندلس في إباحة تلك العلوم والإعراض عن تحجير طلبها». طبقات الأمم ص ١٠٤ .

(٤) انظر : ابن خلدون . عبد الرحمن ١٢٨٤هـ ، تاريخه (العبر وديوان المبتدأ والخبر) ، الجزء الرابع . بلا مكان طباعة ، ص ١٦٣ .

وشهدت الفلسفة في عصر الموحدين أوج ألقها ، حين منح الخليفة الموحدي الفلاسفة أقصى مرامي الحرية في الاشتغال بها ، فأورث هذا العلم ازدهاراً بالغاً . فقد شغف الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بعلم الفلسفة وتحقق به ، فجمع من مصنفاتها من أقطار الأندلس والمغرب عدداً وافراً ((فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي . . ولم يزل يجمع الكتب ، ويبحث عن العلماء وخاصة علم أهل النظر إلى أن اجتمع له منهم مالم يجتمع لملك قبله ممّن ملك المغرب))[1] ، وأسبغ على الفيلسوف ابن طفيل الذي كان طبيبه حظوته وإكرامه ، فكان يلازمه ، ويقيم في القصر عنده أياماً ليلاً ونهاراً[2] . وكذلك منح تلميذه ابن رشد رعايته فيما بعد ، فغدا طبيبه وفيلسوفه المقرب ، وأمره بترجمة كتب أرسطو وشرحها . أما الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور فاقتفى أثر سلفه في العناية بالفلسفة ، وتقريب ابن رشد . لكنه تنكر لها ، وانقلب على الفلسفة عقب نصره في معركة (الأرك) ، فاضطهد الفلاسفة ، وعاقب ابن رشد بالنفي[3] .

ويلوح أن من أهم علل ازدراء الأندلسيين للفلسفة ، واضطهاد أصحابها أغلب تاريخهم الوازع الديني ، والحرص على وحدة الصف الأندلسي ، فلم ينكر الأندلسيون الفلسفة على إطلاقها،وإنما أنكروا الفلسفة التي تمس العقيدة. ولذا رموا أتباع الفلسفة بالزندقة ، وقرنوا كراهة الفلسفة بكراهة التنجيم كما يقرر المقري في حديثه عن علوم الأندلسيين إذ يقول : ((فإنه كلما قيل : فلان يقرأ الفلسفة ، أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق ، وقيدت عليه أنفاسه ، فإن زلّ في شبهة رجموه بالحجارة ، أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة ، وكثيراً ماكان يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت))[4] .

---

(١) المراكشي . المعجب ص ٣١٠، ٣١١ . (٢) المعجب ص ٣١٢ .
(٣) انظر : محنة ابن رشد في المعجب ص ٣٨٤، ٣٨٥ .
(٤) نفح الطيب ٢٢١/١ .

ولا ريب في أن مناوءة هذا الضرب من الفلسفة ينطوي على إنكار للخصومة الفكرية ، وفرق من إثارة الفتن في ميدان الفكر والعقائد ، فلم يكن الواقع الأندلسي العاصف بالفتن والحروب على امتداد تاريخه ليحتمل فتناً جديدة في ساحة الفكر والعقيدة . ولذا اشتدّ الأندلسيون في عداء هذا الضرب من النشاط الفكري خوفاً من تصدُّع البنيان الأندلسي القلق الذي تحيق به الأخطار والمهالك .

ومهما يكن فلم تكن الأندلس بدعاً في الموقف السلبي العام من النشاط الفلسفي ؛ فذلك أمر طبيعي في كل عصر ومكان . فمن المستبعد أن يشتغل عامة الشعوب بعلوم الفلسفة والنظر التي تقتضي قدرات خاصة فـ ((ميدان العمل الفلسفي لم يكن نشاطاً عامًّا في أي عصر ، وإنما كان أمرًا خاصًّا فرديًّا في كثيرٍ من الأحيان))[1] و ((تلك طبيعة الدراسات الفلسفية في جميع البيئات تتسم بالندرة ، ويتعرض أصحابها للمطاردة والمضايقات))[2] وحين عرض المقري موقف عامة الأندلس من علوم الفلسفة . ذكر أن للفلسفة حظًّا عظيمًا عند خواصهم[3] .

الموقف النقدي من المعاني الفلسفية :

اصطبغ الموقف النقدي من المعنى الفلسفي ـ على العموم ـ بالسلبية أو القبول المشروط . وتلونت هذه السلبية مابين الصمت إزاءه ، والدهشة والاستغراب ، والإنكار والإعراض ، والهجوم والعداء السافر إذا ماجنح إلى الغلو والعبث بالعقيدة . ويلوح أن الموقف النقدي الأندلسي يجلو الاتجاه النقدي العام الذي يرى الشعر معبراً عن المشاعر والوجدان بعيداً عن ميادين

---

(١) عباس . دكتور إحسان . عصر الطوائف والمرابطين ص ٦٩، ٧٠ .

(٢) شلبي . دكتور سعد . البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر عصر ملوك الطوائف دار نهضة مصر للطبع والنشر . القاهرة . بلا تاريخ ص ٣٧٧ .

(٣) انظر : نفح الطيب ٢٢١/١ .

الفكر والعلوم العقلية[١] . فإذا ماأحسن الشاعر توظيف الفكر الفلسفي المعتدل الذي لاينافر العقيدة في إثارة الشعور الصادق ، وتعمق وهج المعاناة حاز رضا الناقد واستحسانه .

فقد ساق الناقد الأندلسي المعنى الفلسفي المقتصر على الإشارة اللطيفة بالمصطلح في سياق الرضا والإعجاب . من ذلك ماقدّم به ابن بسام لأبيات أبي العلاء بن زهر بن عبد الملك بن زهر إذ أشار إلى الجانب الفلسفي في الأبيات دونما إنكار أو استهجان وهو قوله : ((وله وهو مما طبّق المفصل في الغرض ، واستوفى معنى لم أر أحداً يستوفيه ، وجمعه من ألفاظ أدبية ، ومعانٍ فلسفية ، وأبرزه في صورة من الحسن يوسفية :

ياراشقي بسهام مالها غرض .....))[٢].

وكذلك أعجب المقري بالأبيات السالفة ، فقال معقّباً : ((وهذا معنى في غاية الحسن))[٣].

وصمت بعض النقاد إزاء بعض المعاني الشعرية إذا لم تمسّ أصول العقيدة ، ولم تخرج عن مبادئ الشريعة ، بل أتت على سبيل التظرف والتملح ، أو إبراز الثقافة والمقدرة الشعرية . من ذلك أننا لانظفر بتعليق نقدي على محاولات ابن حزم الشعرية الفلسفية التي أوردها في كتابه (الطوق) . ((ولعل تفسير ذلك أن ابن حزم إنما فعل ذلك استلطافاً ، أو قصد إلى إثبات القدرة الشعرية الأندلسية

---

(١) ذهب حازم القرطاجني إلى استبعاد المعاني الذهنية من دائرة الشعر ، لأن هذا النوع المتعلق بإدراك الذهن لايصلح للشعر ، وأن أكثر الناس يستبرد وقوع المعاني الذهنية فيه ، ولا يوردها في شعره إلا من أراد أن يموّه على الناس بأنه شاعر عالم ، وأن الشاعر الحق لايدرج في شعره إلا المعاني التي تحرك الجمهور ، وتؤثر في النفوس . انظر : القرطاجني . حازم . منهاج البلغاء وسراج الأدباء . تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة . تونس ، ١٩٦٦م ، ص ٢٨-٣١ .

(٢) الذخيرة ١/٢ : ٢٣١ .

(٣) نفح الطيب ٤٣٣/٣ .

في شتى الأغراض ، أو أن هذه المعاني لديه تجري في باب ماطابقت فيه الفلسفة الشرائع))[1] .

وارتبط الموقف النقدي من المعنى الفلسفي بالذوق الأدبي المحافظ الذي يؤثر طريقة العرب ، فقد أعرض ابن بسام عن غرابة المعنى الفلسفي لدى المحدثين ، وعدّها أثراً من آثار نضوب القريحة الشعرية لديهم ، وضيق المعاني بهم مجانبين بذلك اعتدال المعنى الشعري ، وأُلْفته في طريقة العرب . ولذا رمى هذا المسلك الفلسفي في المعنى بالهذيان . يقول تعليقاً على قصيدتي ابن وهبون المرسي ، وأبي عامر الشنتريني : ((وهذا معنى فلسفي قلّما عرّج عليه عربي ، وإنما فزع إليه المحدثون من الشعراء حين ضاق عنهم منهج الصواب ، وعدموا رونق كلام الأعراب ، فاستراحوا إلى هذا الهذيان استراح الجبان إلى تنقُّص أقرانه ، واستجادة سيفه وسنانه))[2] . ويعزز هذا الموقف النقدي المحافظ مذهبه بموقف الكراهة المشرقي من إدخال ألفاظ العلوم في الأدب[3]. يقول ابن بسام معقباً : ((وقد قال بعض أهل النقد إنه عيبٌ في الشعر والنثر أن يأتي الشاعر أو الكاتب بكلمة من كلام الأطباء ، أو بألفاظ

---

(١) عليان عبد الرحيم دكتور مصطفى . تيارات النقد الأدبي في الأندلس ص ٤٢١ .

(٢) الذخيرة ١/٢ : ٤٨٠ .

(٣) يقول الآمدي معبراً عن استبعاد الشعر الذي يستلهم معاني الفلسفة ، ولو اتفق له صحة الوصف ، وسلامة النظر ، ولطافة المعنى معللاً ذلك بقوله : ((وإذا كانت طريقة الشاعر غيرَ هذه الطريقة حتى يعتمد دقيق المعاني من فلسفة يونان ، أو حكمة الهند ، أو أدب الفرس ، ويكون أكثر مايورده منها بألفاظ متعسّفة ، ونسج مضطرب ، وإن اتفق في تضاعيف ذلك شيء من صحيح الوصف ، وسليم النظر قلنا له قد جئت بحكمة وفلسفة ، ومعان لطيفة حسنة فإن شئت دعوناك حكيماً ، أو أسميناك فيلسوفاً ، ولكن لانسميك شاعراً ، ولا ندعوك بليغاً . لأن طريقتك ليست على طريقة العرب ولا على مذاهبهم ، فإن سميناك بذلك لم نلحقك بدرجة البلغاء ، ولا المحسنين الفصحاء)) . الموازنة ٤٠١/١، ٤٠٢ .

الفلاسفة القدماء)) [1] . وعلى ذلك اتخذ الموقف السلبي من معاني الفلسفة مظهر الدهشة والعجب على نحو ما عبّر ابن بسام عن استغرابه الممزوج بالسخط على مسلك الشاعرين المشرقيين المتنبي والمعري . يقول معلّقاً على معاني ابن وهبون ، وأبي عامر الشنتريني : ((وإني لأعجب من أبي الطيب على سعة نفسه ، وذكاء قبسه فإنه أطال قرع هذا الباب ، والتمرس بهذه الأسباب ، وكذلك المعري . كثر به انتزاعه ، وطال إليه إيضاعه حتى قال فيه أعداؤه وأشياعه ، وحسبك من شرّ سماعه ، وإلى الله مآله ،وعليه سؤاله))[2] .

وارتبط الموقف النقدي السلبي من المعنى الفلسفي بالنزوع الديني أيضاً ، وذلك حين يهبط الشاعر في تفلسفه إلى درك الإلحاد ، والمساس بهيبة العقيدة ، والعبث بأصول الشريعة . ولذا أنكر الناقد الأندلسي أي جنوح فلسفي من هذا القبيل ، وصدّ أي انحراف من شأنه أن يحدث فتنة في الميدان الفكري الأندلسي ، أو يثلم الكيان الأندلسي الذي تعصف به المهالك . ولذا تعقب الناقد الأندلسي شطحات الشاعر المشرقي الفلسفية ، وأزرى بما فيها من انحراف العقائد خشية أن يقتفي الشاعر الأندلسي أثرها ، وخوفاً من تأثيرها السيئ في البنيان الأندلسي الذي ماكانت تنقصه آنذاك ـ عصَر ابن بسام ـ فتن العقيدة والفكر . ولهذا تصدّى ابن بسام لقول المتنبي :

تبخلُ أيدينا بأرواحِنا ... على زمانٍ هنّ مِنْ كسبِهِ
يموتُ راعي الضأنِ في جهلِهِ ... ميتةَ جالينوسَ في طبّهِ ...

الذي نقله من قول أبي غسان المتطبّب :

حُكْمُ كأسِ المنونِ أنْ يَتَساوى ... في حِمَاها الغبيُّ والألمعيُّ
أصبحا رمّةً تزايلَ عنها ... فضلها الجوهريُّ والعرضيُّ
وتلاشى كيانُها الحيوانيُّ ... وأودى تقويمُها المنطقيُّ

(٢،١) الذخيرة ٢/١ : ٤٨٠ .

والذي لمح فيه لوناً من ألوان الشك ، فقال معقّباً ومحتداً : ((وهذا كلام من الإلحاد على غاية الاضمحلال والفساد ، فليس تساوي الناس في الموت والفناء حجةً في عدم البقاء والمراتب في دار الجزاء))[1]. ولذا أثار غلوُّ السميسر الذي يجترئ فيه على العقيدة في أبياته التي يقول فيها :

ياليتَنَـــا لَمْ نَـــكُ مِـــنْ آدمُ أورَطَنَـــا في شَـــبَهِ الأَسْـــرِ[2]

حفيظة ابن بسام فأنكر على قائله اقتفاءه نهج أبي العلاء المعري في سخف آرائه ، مع تقصيره عن مجاراته في حسن الصياغة . يقول : ((والسميسر في هذا الكلام ممّن أخذ الغلو بالتقليد ، ونادى الحكمة من مكان بعيد : صرّح عن عمى بصيرته ، ونشر مطويّ سريرته في غير معنى بديع ، ولا لفظ مطبوع ، ولعله أراد أن يتبع أبا العلاء فيما كان ينظمه من سخيف الآراء ، ويابعد مابين النجوم والحصباء ، وهَبْه ساواه في قصر باعه ، وضيق ذراعه أين هو من حسن إبداعه ، ولطف اختراعه؟))[3]. ويقرر ابن بسام فيما بعد أن السميسر إنما حاكى في بيته الأخير أيضاً مغالاة المتنبي في قوله :

أبـــوكُم آدمٌ سَـــنَّ المعاصـــي وعلَّمَكُـــمْ مُفَارَقَـــةَ الجِنَـــانِ[4]

مواقف الشعر من علوم الفلسفة :

برزت في الشعر الأندلسي مواقف من الفلسفة عبَّر فيها أصحابها عن نظرتهم إلى علوم الفلسفة ، والجدل ، وإلى المشتغلين بها . ومن المتوقع أن تتسم أغلب هذه المواقف بالسلبية ، وتصطبغ بإنكار تلك العلوم تجاوباً مع الموقف الأندلسي العام منها . وقد تدرّجت هذه المواقف من الإنكار والاستهجان إلى التكذيب ، والاتهام بالمروق من الدين ومخالفة الجماعة . وإن

---

(١) الذخيرة ٢/١ : ٤٨٢ . وبيتا المتنبي في ديوانه ص ٥٧٣، ٥٧٤ مع تغيير بسيط (هي) عوضاً من (هنّ) و (موتة) عوضاً من (ميتة) .

(٢،٣) انظر : الذخيرة ٢/١ : ٨٩٠ .

(٤) انظر : الذخيرة ٢/١ : ٨٩٤ . وبيت المتنبي في ديوانه ص ٥٥٨ .

كنا لانعدم لفتات من تقدير الفلسفة ، والتنويه بأصحابها ، والتفات الشاعر إليها في بعض الأحيان .

ففي مسألة البعث بعد الموت رمى ابن حمديس الفيلسوف بالغفلة ؛ لأنه بتقديسه العقل ، وتحكيمه إياه يغفل مسالك لايجدي معها سوى الإيمان والتسليم . يقول :

نُنَشّأُ بالبعثِ بعدَ ميتتِنا ... أَمَا يعيدُ الزجاجَ مَنْ سبَكَهْ
ماأغفلَ الفيلسوفَ عنْ طرقٍ ... ليسَتْ لأهلِ العقولِ مُنْسَلِكَهْ
مَنْ سلّمَ الأمرَ للإلهِ نَجَا ... ومَنْ عَدَا القَصْدَ وَاقَعَ الهَلَكَهْ[1]

وصبّ ابن جبير (- ٦١٣هـ) في عصر الموحدين ـ عصر ازدهار الفلسفة وشيوعها ـ نقمته على فرقة الفلاسفة ، وعدّها شؤماً على عصره ، ووحشة للدين الإسلامي لاشتغالها بالسفاهة ، وضلالها عن هدي الشرع ، وقولها بفعل الطبيعة وحدها . يقول :

قدْ ظهرَتْ في عصرِنَا فرقةٌ ... ظهورُها شؤمٌ على العصرِ
لاتقتدي في الدينِ إلاَّ بمَا ... سنّ ابنُ سينا وأبو نَصْرِ
ياوحشةَ الإسلامِ منْ فرقةٍ ... شاغلةٍ أنفسَها بالسّفَهْ
قد نبذتْ دينَ الهدى خلفَها ... وادّعَتْ الحكمةَ والفلسفَهْ
ضلّتْ بأفعالِهَا الشنيعةْ ... طائفةٌ عن هُدَى الشريعَهْ
ليسَتْ ترى فاعلاً حكيماً ... يفعلُ شيئاً سوى الطبيعَهْ [2]

أما أبو زيد الفازازي من العصر نفسه فقرن كتب الفلسفة بالضلال ، ودعا إلى نبذها ؛ لأنها تحمل الهلاك والحيرة ، وأزرى بالفلاسفة جميعاً ، ورماهم بالكذب والادّعاء ، والخروج عن هدي الشريعة . يقول :

ولَكُمْ إمامٌ قدْ أضرّ بفهمِهِ ... كتبٌ تعبُّ من الضلالِ كتائبَا

---

(١) الذخيرة ٤/١ : ٣٣٦ .
(٢) نفح الطيب ٣٨٥/٢ .

فاقــذِفْ بــأفلاطونَ أو رســطالِس وذويهمــا تســلكْ طريقــاً لاحبَــا
ودَعِ الفلاســفةَ الــذميمَ جمــيعهم ومقــالَهُمْ تــأتي الأحــقّ الواجبَــا
فانظرْ بعقلِكَ هــل تــرى متفلســفاً فــيمَنْ نــرى إلا دعيًّــا كاذبَــا
أعيَتْــهُ أعبــاءُ الشــريعةِ شــدّةً فارتــدّ مســلوبًا وتحســبُ ســالبَا

ويلتاح الحرص على وحدة الصف ، والخشية من الشذوذ عن نهج الجماعة الرشيدة في دعائه هذا :

واللهَ أســألُ عصــمةً وكفايــةً مِنْ أنْ أكونَ عــن المحجّــةِ ناكبَــا[1]

وعلى النقيض من هذا تبرز إشارات تنوّه بالفلسفة وأصحابها ، بل تغدو الفلسفة لدى الشاعر المتفلسف ملاذاً يفرّ إليه من إخفاقاته في ميدان السياسة والشعر المرتبط بها . يقول :

لزمْــتُ قنــاعتي وقعــدتُ عنــهُمْ فلســتُ أرى الــوزيرَ ولا الأمــيرَا
وكنتُ ســميــرَ أشــعاري سَــفَاهاً فعُــدْتُ لفلســفيّاتي ســميرَا [2]

ويغدو التحقق بالفلسفة ميزة عظمى تضاف إلى فضائل الممدوح الأخرى . يقول ابن زيدون في المعتضد العبادي :

همــامٌ يــزينُ الــدهرَ منــه وأهلَــه مليــكٌ فقيــهٌ كاتــبٌ متفلســفُ[3]

ومن اللافت هاهنا أن تقترن الفلسفة بالفقه في الإعلاء من شأن الممدوح اقترانَ تكامل بعيداً عن التنافر والتعارض السابقين في الموقف العام من الفلسفة . ممّا يبرز موقف القبول والرضا عن علوم الفلسفة ، وإلمام بعض الحكام بها .

الشعر الفلسفي :

تضافرت عوامل عديدة على ظهور الشعر الفلسفي . لعل أبرزها : النهوض الثقافي الشامل وما اقترن به من حرية فكرية نسبية ، والتأثر بأشعار المتنبي

---

(١) الهرامة . عبد الحميد . آثار أبي زيد الفازازي ص ١٥٥ .
(٢) ديوانه ص ٢٢٠ . (٣) ديوانه ص ٤٨٦ .

والمعري . فقد أفضت النهضة الثقافية الشاملة التي بلغت ذروة قوتها في عصر الخلافة الأموية ، وفي عصور تالية إلى توفر بعض الأندلسيين على علم الفلسفة والمنطق والجدل بعد أن كان البحث في هذه العلوم العقلية محرماً .

وأسهم شعر المتنبي والمعري في توفُّر الشعراء على الخوض في الشعر الفلسفي . وذلك بما ضمّه هذا الشعر من ترجيع لأصداء الفلسفة ، واستلهام لأفكارها ونظرياتها ، فأولع عدد من الشعراء باقتفاء نهجهما الشعري ، فجنحوا إلى العمق الفكري ، وخاضوا في قضايا المنطق والفلسفة . ومن أبرز الشعراء الذين تأثروا بطريقة المتنبي في الجانب الفكري الرمادي ، وابن هانئ ، وابن دراج ، وابن عبدون ، وابن وهبون ، وغيرهم . ومع الأثر الذي أحدثه شعر أبي العلاء الفلسفي ، لدى بعض شعراء الأندلس الذين اقتفوا خطاه فقد أعرض معظمهم عن هذا المسلك الفلسفي وكان موضوعاً لإنكار النقاد المحافظين عموماً ، فقد تصدّى الناقد ابن بسام لمسالك بعض الشعراء الأندلسيين الذين تعقبوا الشاعرين المشرقيين في نزوعهما الفلسفي الذي يجترئ على حرمة العقيدة كما سنرى .

وعلى ذلك اتجه بعض الشعراء الذين ألمُّوا بالثقافة الفلسفية ، إلى اعتماد هذه الثقافة في نظرتهم إلى الحياة ، والكون ، والوجود الإنساني . ولكن هذا الشعر الفلسفي تراوح بين إبراز العلم الفلسفي ، والمعالجة الفلسفية العميقة للموضوع الفكري والشعوري . وعلى العموم كانت نماذج الشعر الفلسفي الأندلسي قليلة ، ولا سيما إذا ماقورنت بالنشاط الفلسفي الذي شهدته الأندلس في فترات التسامح . فعلى الرغم من بروز فلاسفة عظام في تلك المراحل كابن باجة ، وابن طفيل ، وابن رشد ، ومنهم من كان شاعراً كابن باجة ، وابن طفيل فإنه لم يؤثر عنهما شعر فلسفي يترجم عن الأفكار التي كانا يشتغلان بها إلا ماندر . وغالب الظن أن السبب يكمن في الموقف الأندلسي السابق من الفلسفة كما رأينا .

المعاني الفلسفية في الشعر :

برزت المعاني الفلسفية في شعر الأندلس في صور عديدة ، ونسب مختلفة نظراً لاقترانها بالاتجاه الفلسفي العام في الحياة الثقافية الأندلسية . وقد ذهب الدكتور إحسان عباس إلى أن هذا الاتجاه مرّ ـ حتى عصر الطوائف والمرابطين ـ بمراحل ثلاث : ((مرحلة إنكاره ومقاومته ، ووقوف الشعر ضده ، ومرحلة التملّح بالآراء الفلسفية بالإيماء إليها في الشعر ، أو نظمها شعراً... ، ومرحلة تمّ فيها إخضاع الشعر للفكرة الفلسفية . ولا ريب في أن ذلك ناجم عن عاملين : الحرية النسبية في التعبير عن الاتجاه الفكري أولاً ، ثم تأثير شعر أبي العلاء المعري ثانياً))[1] .

وعلى ذلك ندرت المعاني الفلسفية في العصور الأندلسية المبكرة نظراً لقلة شيوع الثقافة الفلسفية آنذاك ، ولموقف العداء والكراهة لكل نشاط فلسفي . ولكن لم تلبث أن أطلّت المعاني الفلسفية في الشعر فيما بعد متجلية في إشارات فلسفية تنم على انتشار جزئي لعلوم الفلسفة ، والمنطق ، والكلام ، وتشير إلى أن مصطلحات الفلسفة ، ونظرياتها العامة غدت أمراً مألوفاً يصافح أسماع الناس دون أن يثير استغراب السامع ، ولا سخط الناقد . والحق أن هذه الإشارات الفلسفية برزت على امتداد الشعر الأندلسي كله ، وأطلّت من خلال الموضوعات الشعرية على سبيل التملح ، أو إبراز الثقافة ، أو استخدام مصطلحاتها لتعزيز المعنى الشعري وتعميقه .

فهذا ابن حزم يستدلّ بالفكرة الفلسفية في تأييد رأيه في أنّ علّة الحب شيء في ذات النفس ، وأنه إذا كانت المحبة لسبب من الأسباب فهي تفنى بفناء ذلك السبب ، يقول :

ودادي لك الباقي على حسْبِ كونِـهِ تناهى فلمْ يـنقصْ بشـيءٍ ولم يـزد
وليسَـتْ لـه غـيرُ الإرادةِ علّـةٌ ولا سـببٌ حاشـاهُ يعلمُـهُ أحَـد

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي . عصر الطوائف والمرابطين ص ١٢٥ .

إذا ماوجدْنَا الشيءَ علّةَ نفسِهِ فذاك وجودٌ ليس يفنى على الأبدْ
وإمّا وجدناه لشيءٍ خلافه فإعدامُهُ في عدمنا مالهُ وجدْ [1]

ومن الأفكار ذات الطابع الفلسفي معنى اجتماع الأضداد واتفاقها في محاسن هذا المحبوب الصدود . يقول أمية بن أبي الصلت الأندلسي :

يعذّبُ القلبَ بهجرانِهِ وليس للقلبِ سواهُ انشراحْ
تلاقَتِ الأضدادُ في خمسةٍ على اتفاقٍ بينهم واصطلاحْ
إنْ لانَ عطفاه قسا قلبُهُ أو ثبتَ الخلخالُ جالَ الوشاحْ [2]

ويتملح أبو بكر الداني بهذه الإشارة المنطقية :

لاتشغلنّك خدعةٌ فلربّما في الكتب سرٌّ ليس في العنوانِ
والخبرُ يجلو كلّ شيء مثلما تجلو الشكوكَ إقامةُ البرهانِ[3]

ويستقي ابن السيد البطليوسي من ثقافته الفلسفية مصطلحَي الإمكان والوجوب في سياق نزوعه الزهدي . يقول :

تتيهُ وقد أيقَنْتَ أنَّكَ ممكنٌ فكيف لو استيقنْتَ أنَّكَ واجبُ
وهلْ لكَ منْ عدنٍ إذا متّ أو لَظى محيصٌ يرجّى أو عنِ اللهِ حاجبُ[4]

ويأتي ابن حمديس بالمصطلح الفلسفي على نحو أدنى إلى الإقحام ، وإظهار الثقافة . يقول :

زجاجٌ وخمرٌ وماءٌ كما تقول هيولى ونفسٌ وصورَهْ [5]

---

(١) طوق الحمامة ص ١١ .
(٢) ديوانه . تحقيق : عبد الله محمد الهوني ص ١٤١ .
(٣) الذخيرة ٢/٣ : ٦٨٨ .
(٤) ابن السيد البطليوسي . حياته . منهجه في النحو واللغة . شعره . دكتور صاحب أبو جناح . مجلة المورد . بغداد ١٩٧٧م . المجلد ٦ العدد ١١ ص ٩٧ .
(٥) ديوانه . تحقيق : عباس دكتور إحسان ص ١٨٤ .

ويلمُّ المقتدر أحمد بن سليمان بمصطلحَي الكون والفساد في غمرة تذمُّره من وجوده البائس وحياته المعذبة . يقول :

لستُ لدى خالقي وجيهًا ... هذا مدى دهري اعتقادي

لو كنتُ وجهاً لَمَا بَرَاني ... في عالمِ الكونِ والفسادِ (١)

ويستشهد الشاعر بالمصطلح الفلسفي لتمثيل المعنى المراد في سياق من رشاقة الصياغة . انظر هذه الحال التي يجلوها المصطلح الفلسفي مقروناً بالمصطلح النحوي في قول محمد بن مروان بن زهر متغزلاً :

ياراشقي بسهامٍ مالَهَا غرضٌ ... إلا فؤادي وما منها له عِوَضُ

ومُمْرضي بجفونٍ لحظُهَا غنجٌ ... صحّتْ وفي طبعِهَا التمريضُ والمرضُ

امننْ ولو بخيالٍ منكَ يؤنسُني ... فقد يسدُّ مسدَّ الجوهرِ العَرَضُ (٢)

ويلمّ ابن طفيل الفيلسوف الشهير في مقطوعة قصيرة بالفكرة الفلسفية . فكرة العلاقة بين الروح والجسد ، وفرقتهما المؤلمة بانطفاء نور الروح في طين الجسد ، يقول في سياق الزهد :

ياباكيًا فرقةَ الأحبابِ عن شحطٍ ... هلاّ بكيتَ فراقَ الروحِ للبدنِ

نورٌ تردّد في طينٍ إلى أجَلٍ ... فانحاز عُلْوًّا وخلّى الطينَ للكفنِ

ياشدّ ماافترقا مِنْ بعدِ ماعتلَقَا ... أظنُّها هدنةً كانَتْ على دَخَنِ

إنْ لم يكنْ في رضا الله اجتماعُهما ... فيا لها صفقةً تمّتْ على غبنِ (٣)

ويتلاعب لسان الدين بن الخطيب على سبيل التورية بالمصطلح الفلسفي في حديث الشكوى والشوق قائلاً :

وكمْ قدْ كتمتُ الشوقَ لولا مدامعٌ ... تروّي مجاريها المحاجرَ والخَدّا

---

(١) ابن سعيد . المغرب ٤٣٧/٢ .

(٢) الذخيرة ١/٢ : ٢٣١ ، ونفح الطيب ٤٣٣/٣ .

(٣) المعجب ص ٣١٣، ٣١٤ .

وتخرجُ من بحـرِ الجفـونِ جـواهراً تحاجُّ بـها مَنْ أنكرَ الجوهرَ الفردَا[1]

ويستخدم لسان الدين الاستدلال المنطقي في سياق المديح . يقول :

وقضى قيـاسُ تراثـهِ عـن جـدِّه أنّ «المقدّمَ» فيه عـينُ «التـالي»[2]

وتأتي الفكرة الفلسفية (يتميز الشيء بضده) لتعزّز المعنى الشعري وتؤكده . يقول ابن زمرك :

وليلة إذْ ولّى الحجـيجُ علـى مـنى وفَتْ لي المُنى منها بـما شئتُ من قصدِ
غفرْتُ لدهري بعدَها كـلّ مـاجَنَى سوى ماجَنَى وفْدُ المشيبِ على فَوْدِي
عرفْتُ بـها بالشيبِ فضلَ شـبيبتي وما زال فضلُ الضدّ يُعرفُ بالضدِّ [3]

وتغدو مصطلحات الفلسفة ومسائلها ميداناً للمطارحات الشعرية مابين الشعراء الذين ألمّوا بطرف من المنطق والثقافة الفلسفية ، فاستلهموها في محاوراتهم الشعرية على سبيل التفكه ، أو إبراز العلم على النحو الذي تجلوه المحاورة التالية بين هذين الشاعرين . يروي المقري قائلاً : ((سمعتُ الآبلي يقول : قال أبو المطرف ابن عميرة :

فضلَ الجمالُ على الكمـالِ بوجهِـه فالحقُّ لايخفـى علـى مَـنْ وسّـطَهْ
وبطرفِه سـقمٌ وسـحرٌ قـدْ أتـى مستظهراً بـهما علـى ماسـتنبطَهْ
عجبـاً لـه برهانُـهُ بشـروطِه معـه فمـا مقصـودُهُ بالسفسَـطَهْ

قال : فأجابه أبو القاسم ابن الشاط فقال :

علـمَ التبـاينَ في النفـوسِ وأنّهـا منـها مغلّطـةٌ وغـيرُ مغلّطَـهْ
فئـةٌ رأت وجـهَ الـدليلِ وفرقـةٌ أصغَتْ إلى الشبهاتِ فهـي مورّطَـهْ

---

(١) ديوانه ٣٥٤/١

(٢) ديوانه ٢٥١/٢. والمقدّم : هو القضية الأولى في الشرطين ، أما التالي فهو القضية الثانية . مثلاً إذا كان المعدن ذهباً فإنه يكون غالي الثمن . هامش رقم (٢٧٨).

(٣) شعر وموشحات الوزير ابن زمرك الأندلسي . تقديم حمدان حجاجي ص ٢٧ .

فأراد جـمعَهُـمَا معـاً في ملكِـهِ هذي بـمنتـجـةٍ وذي بـمغلّطَـهْ

يعني قولهم في التام : هو ماتحمل فيه البرهان الفصل))[1].

الشعر الفلسفي :

وقد يتجاوز الشعر التملح بذكر مصطلحات الفلسفة ، أو التورية بها ، أو الإشارة العابرة إلى قضايا الجدل ، والمنطق ، والكلام ليعبر تعبيراً عميقاً عن النظرات والأفكار الفلسفية التي ثقفها الشاعر ، وتعمقها بذهنه ووجدانه ، ثم لم تلبث أن تمثلت في نتاجه الشعري تأملات تنضح بالعمق الذهني ، ومعاني تفصح عن مواقف فريدة من الوجود الكوني والإنساني .

نظم الأفكار الفلسفية شعراً :

تبدت المعاني الفلسفية مصوغة في شعر قصد منه التعليم ، فقد استقى ابن حزم منزع أهل الكلام في مخاطبة المرئي الظاهر خطابَ المعقول الباطن ، ونصّ على أنه المنزع «المستفيض في شعر النظّام إبراهيم بن سيار ، وغيره من المتكلمين»[2] . يقول من قصيدة له سماها أصحابه (الإدراك المتوهم) :

تـرى كـلّ ضـدّ بِـهِ قائمًـا فكيـف تَحُـدُّ اخـتلافَ المعـاني

فيـا أيهـا الجسـمُ لا ذا جهـاتٍ ويـا عرَضًـا ثابتًـا غـيرَ فـانِ

نقَضْـتَ علينـا وجـوهَ الكـلامِ فما هو مُذْ لُحْتَ بالـمستبـانِ[3]

وجنح ابن السيد البطليوسي إلى الإفصاح عن بعض الأفكار الفلسفية التي ثقفها وتعمقها في شعره على نحو غدا فيه الجانب الفلسفي جليًّا يردد معه نظريات الفلسفة ومبادئها بأسلوب مباشر أدنى إلى التعليمي . من ذلك مثلاً قوله :

أنتَ وسطٌ مابينَ ضـدّين يـا إنْـ ـسانُ ركّبْتَ صـورةً في هيـولى[4]

---

(١) نفح الطيب ٥/٢٤٧ . (٢،٣) طوق الحمامة ١٤ .

(٤) ابن السيد البطليوسي دكتور صاحب أبو جناح ص ١٠٩ .

ويستخدم ألفاظ المتكلمين والفلاسفة إذ يخاطب الإنسان قائلاً :

تَجَـــوْهرُكَ الأدنى عُنِيـــتَ بحفظـــهِ وضيّعتَ من جهلٍ تجوهرَك الأقصى[1]

وأطلت الأفكار الفلسفية من خلال النظم التعليمي الذي عرض فيه الشعراء المقدمات الفلسفية عرضاً تعليميًّا مباشراً . من ذلك ماورد في قصيدة لابن حزم في إثبات حدوث العالم من أبيات في حمد الله تعالى على ماعلّمه من أصول منطقية . يقول فيها :

لـــك الحمـــدُ يـــاربِّ والشـــكرُ ثمْ لكَ الحمـــدُ مابـــاحَ بالشـــكرِ فَـــمْ

وعلّمـــتني الحكـــمَ في هَـــلْ ومـــا وأطلعْـــتَني طلـــعَ كيـــفَ ولِـــمْ

ويعرض فيها أفكاراً عن تدبير الخالق جلّ وعلا للكون :

لـــيعلمَ أهـــلُ النُّهـــى أنّهـــا مـــــدبرة لحكـــــيمٍ حكَـــــمْ

وأنْ لـــيسَ تختـــارُ شـــيئاً ولا لها الحكـــمُ بـــل لإلـــهِ الأمـــمْ...[2]

ومن هذا النظم التعليمي الفلسفي المقدمات التي ساقها أبو طالب عبد الجبار الملقب بالمتنبي في أرجوزته من أدلة المعرفة والاستدلال على الصانع تعالى من الصنعة ، وهو ينكر فيها أقوال بعض الفرق الكلامية ويردُّ عليها ، ويبيّن قضايا منطقية أخرى يقول :

والجســـمُ لـــيسَ فـــاعلاً في الجســـمِ قال بـــــهذا القـــولِ أهـــلُ العلـــمِ

وجانِـــــبِ الحيـــــدةَ والتعمقـــــا فـــإنّ ذاكَ نَهْـــجُ مَـــنْ تَزَلْـــدَقَا

وقُـــلْ بِمَـــا يقـــولُ أهـــلُ الحـــقّ مِـــنْ مُثْبِتِـــي صـــفاتِ ربّ الخلـــقِ

وكـــلُّ شـــيء جـــوهرٌ أو عـــرضُ إلاَّ الـــذي الطـــوعُ لـــه مفتـــرضُ

فـــالجوهرُ الحامـــلُ للأعـــراضِ وهو الـــذي لـــيس بـــذي أبعـــاضِ

---

(١) ابن السيد البطليوسي دكتور صاحب أبو جناح ص ١١٠، والمقري . أزهار الرياض ١٤٦/٣ ، وقلائد العقيان ص ١٩٩ .

(٢) عصر سيادة قرطبة دكتور إحسان عباس ص٣٧٠،٣٧١ نقلاً عن مخطوطة مستقلة .

والعَـــرَضُ المحمـــولُ كـــالألوانِ وحركـــاتِ الجـــرمِ والإســـكانِ [1]

أطل الفكر الفلسفي في الشعر الأندلسي في سياق بعض الموضوعات كالرثاء ، والزهد ، والتأمل في مسألة الموت والحياة . ولكن هذا الشعر الفلسفي لايتسم في عمومه بالعمق،وكثير منه لايخرج عن كونه حكماً بسيطة، ونظرات مستقاة من مواقف زهدية ، أو محن شخصية أو عامة في رثاء الأشخاص ، أو بكاء المدن والدول . وهو في مجموعه لايعد شعراً فلسفيًّا بالمفهوم العلمي لهذا الشعر ، إذ يسوق الأفكار الفلسفية سوقاً بارداً بعيداً عن الفن على نقيض ماوصل إليه الشعر الفلسفي في المشرق لدى بعض أعلامه كأبي تمام ، وأبي العلاء من استخدام الفلسفة استخداماً فنيًّا بديعاً . يقول أحد الباحثين : ((أما الشعر الخاضع للفكرة الفلسفية المحضة الباحثة عن الخير ، والحق ، والمتوصلة عبر معاناة فكرية إلى موقف محدّد من الحياة والكون فقليل جدًّا ، وهو لقلته لايمثل تياراً شعريًّا ، ولا يعطي بعداً فكريًّا كالذي أحدثه أبو العلاء المعري مثلاً في المشرق))[2].

فمن بواكير الشعر الفلسفي هذه الحيرة التي دارت في خلد الشاعر الغزال في مسألة الموت والنفس والروح . يقول :

ويا ليتَ شـــعري أيُّ شـــيءٍ محصّـــلٌ يُرى شخصُ مَنْ قدْ ماتَ وهو دفـــينُ
أهوَ هو أمْ خَلْـــقٌ شـــبيهٌ بِمَـــا رأى فهـــلْ للقلـــوبِ النائمـــاتِ عيـــونُ
وكيف يُرى والعينُ قدْ مـــاتَ نورُهـــا وواقعـــهُ شـــبه الرقـــادِ ســـكونُ
إذنْ كانتِ الأرواحُ مِنْ بعـــدِ بينِهَـــا بـــــهنّ إلى مـــاخلفَهُنّ حـــنينُ [3]

---

(١) الذخيرة ٢/١ : ٩٢٢، ٩٢٣ .

(٢) السعيد دكتور محمد مجيد . الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ص٢٩١.

(٣) ديوانه ص ٧٨ .

واقترن النزوع الفلسفي لدى ابن الحداد بالنزوع الزهدي ، فحين نفض هـذا الشاعر يده من أرباب السلطة إثر إخراجه من المرية لاذ بعلمه الفلسـفي بـدلاً من ممالأة الحاكم ومحاباته . يقول :

لزمـــتُ قنـــاعتي وقعـــدتُ عنـــهُمُ فلســـتُ أرى الـــوزيرَ ولا الأمـــيرَا
وكنـــتُ سمـــيرَ أشـــعاري سَـــفاهاً فعُـــدْتُ لفلســـفياتي سمـــيرَا[1]

ويلوح أن هذا الشاعر المتفلسف عرض لنظراته الفلسفية في قصيدة سماها «حديقة الحقيقة» ضاعت وسلمت منها هذه الأبيات التي يتغنّى فيها بعزلة العالِم الذي أكبَّ على كتبه مغادراً دنيا الناس البائسة . يقول :

ذهـــب النـــاسُ فـــانفرادي أنيســـي وكتـــابي مُحَـــدّثي وجليســـي
صـــاحبٌ قـــد أمنْـــتُ منـــه ملالًـــا واخـــتلالاً وكـــلّ خلـــقٍ بيـــئسِ
لـــيسَ في نوعِـــهِ بحـــيٍّ ولكـــنْ يلتقـــي الحـــيُّ منـــه بـــالمرموسِ[2]

ويغلو السميسر في أسئلته غلوًّا مشوباً بالحيرة والشك فيقول :

مَـــنْ كـــانَ مخلوقًـــا مـــنَ الأرضِ إذْ رُكّـــبُ لَمْ يطّلـــعْ علـــى الســـرِّ
حـــتى تُـــرى الجثـــةُ مطروحـــةً والـــنفسُ في عالمهـــا تســـري
فعنـــدها يـــأمن مـــايتّقي وعنـــدها يعلـــمُ بـــالأمرِ
هـــذا علـــى مـــذهبِنَا ثمّ قـــدْ قيلَـــتْ مقـــالاتٌ ولا أدري
لقَـــدْ نشـــبْنَا في الحيـــاةِ الـــتي توردُنَـــا في ظلمـــةِ القـــبرِ
ياليتَنـــا لَمْ نـــكُ مـــن آدمٍ أورطَنَـــا في شـــبَهِ الأســـرِ
إنْ كـــانَ قـــدْ أخرجَـــهُ ذنبُـــهُ فمـــا لنـــا نُشـــرك في الأمـــرِ[3]

ويفصح هذا الغزل الفلسفي لابن حزم عما كان يدور في أوساط الفلاسفة

---

(١) ديوانه ص ٢٢٠ .
(٢) ابن الأبار . التكملة ٣٩٩/١ .
(٣) الذخيرة ١ : ٨٩٠/٢ .

الأندلسيين من مسألة الصلة بين الروح والجسد مستلهماً نظريته في الحب التي عرض لها في كتابه (الطوق) . وعلى ذلك جعل ابن حزم محبوبه مزيجاً رائعاً بين الروح والجسد ، ثم لم يلبث أن جعله نوراً ، بل روحاً خالصة ومن ثَمَّ عقلاً حقيقيًّا راقياً . يقول ابن حزم :

أَمِنْ عالمِ الأمــلاكِ أنــتَ أمِ انْســيُّ ... أبِنْ لي فقــدْ أزرى بتمييــزيَ العــيُّ

أرى هيئــةً إنســيّةً غــيرَ أنّــهُ ... إذا أُعْمِلَ الــتفكيرُ فــالجرمُ عُلْــويُّ

تبارَكَ مَنْ ســوّى مــذاهبَ خلقــهِ ... على أنّك النــورُ الأنيــقُ الطبيعــيُّ

ولا شكّ عندي أنّكَ الــروحُ ســاقَهُ ... إلينــا مثــالٌ في النفــوسِ اتّصــاليُّ

عدمنا دلــيلاً في حــدوثِكَ شــاهدًا ... نقــيسُ عليــهِ غــيرَ أنّــكَ مرئــيُ

ولولا وقوعُ العينِ في الكونِ لم نَقُــلْ ... سوى أنّكَ العقلُ الرفيعُ الحقيقــيُّ (١)

وكان فن الرثاء من أظهر الموضوعات التي احتضنت هذا الاتجاه الفلسفي في الشعر ، إذ دعته مسألة الموت إلى التأمل في حقيقة الحياة والموت ، ومن ثَمَّ إزجاء الحكمة الممتزجة بالفكر الفلسفي ، واعتماد نظرياته في النظر إلى هذه القضية . ولعل قصيدة ابن وهبون المرسي في رثاء الأعلم الشنتمري من أجلى نماذج هذا الشعر الفلسفي . ومطلعها :

ســبقَ الفنــاءُ فمــا يــدومُ بقــاءُ ... تفنى النجومُ وتســقطُ البيضــاءُ (٢)

ويلوح فيها أثر المتنبي والمعري ، وقد ردد ابن وهبون في قصيدته القول بأن النفس الإنسانية شعلة سقطت من عليائها لتمتزج بعنصري الجسد : الماء والتراب وتعود بعد ذلك كما بدأت :

مــاالنفسُ إلا شــعلةٌ ســقطَتْ إلى ... حيث استقلّ بــها الثــرى والمــاءُ

حتى إذا خلصَتْ تعودُ كمــا بــدَتْ ... ومــن الخــلاصِ مشــقةٌ وعنــاءُ

---

(١) طوق الحمامة ص ١٤ .

(٢) انظر : القصيدة في الذخيرة ١/٢ : ٤٧٨، ٤٧٩- ٤٨٣ .

كذبَتْ حياةُ المرء عندَ وجودِهَا وجدَ الحِمامُ ومنه كانَ الداءُ [1]

وتدور أبيات أبي عامر الشنتريني حول ثنائية النفس والجسد أيضاً مع العناية بإيراد المصطلح الفلسفي . يقول :

يالَقومي دفنُوني ومضَوْا وبنَوْا في الطينِ فوقيَ مابَنَوْا
ليتَ شعري إذْ رأَوْني ميّتًا وبَكَوْني أيّ جزئيَّ بَكَوْا
أنَعَوْا جسمي فقدْ صارَ إلى مركزِ التعفينِ أمْ نفسي نعَوْا
كيف ينعَوْنَ نفوسًا لمْ تَزَلْ قائماتٍ بحضيضٍ وبجَوْ
ما أراهُمْ ندبُوا فيّ سوى فرقةِ التأليفِ إنْ كانُوا دَرَوْا [2]

ويكرر ابن زمرك الفكرة القائلة بأن الكون وما فيه محض ظلال موهمة :

واللهِ ماالكونُ بما قَدْ حَوَى إلا ظلالٌ تُوهمُ الغافلا
وعادةُ الظلِّ إذا مااستوى تبصرُهُ منتقلاً زائلا [3]

الشعر الفلسفي الصوفي :

ويغتني الشعر الفلسفي في الأندلس إذ يردد أصداء النظريات الفلسفية الصوفية التي نشطت في الحياة الثقافية الأندلسية . وعلى ذلك فاقت نسبة الشعر الصوفي نسبة الشعر الفلسفي ، وتوزع هذا الشعر مابين قصيد ، وموشح ، وزجل . فهذا ابن السيد البطليوسي يحوم حول نظرية وحدة الشهود التي يستجلي فيها المرء الذات العلية في ضروب الكون ، ومظاهر الخلق . يقول مخاطباً الله تعالى :

وهل غبتَ عن شيءٍ فينكرَ منكرٌ وجودَكَ أمْ لم تبدُ منكَ الشواهدُ

---

(١) الذخيرة ١/٢ : ٤٧٨، ٤٨٣ .
(٢) الذخيرة ١/٢ : ٤٧٩ .
(٣) شعر وموشحات الوزير ابن زمرك الأندلسي ، تقديم حمدان حجاجي ١٥٦ .

وكم لكَ في خلقِ الورى منْ دلائــلٍ يراهــا الفــتى في نفسِــهِ ويشــاهدُ
وكلُّ وجودٍ عــن وجــودِكَ كــائنٌ فواجدُ أصنافِ الورى لــكَ واجــدُ
سرَتْ منكَ فيها وحدةٌ لــو منعْتَهــا لأصبحتِ الأشياءُ وهــي جوامــدُ [1]

وربما كانت نظرية وحدة الوجود أبرز النظريات الفلسفية الصوفية التي عرفتها أوساط التصوف في الأندلس ، وأفصح عنها الشعر هناك . وإذا كان هذا المذهب قد اقترن باسم محيي الدين بن عربي الذي وضع أصوله،وطوّر مبادئه، وصاغه في صورته النهائية من خلال مؤلفاته الكثيرة[2] ، فقد كان أيضاً من أبرز من ترجمه في شعره الصوفي مردّداً أن الوجود كله مظهر للذات الإلهية ، وأن لاوجود في الكون سوى للحق تعالى ، وما الموجودات كلها سوى مظاهر للخالق ، وتجليات له ، وأن الإنسان عالم صغير ينطوي فيه كل مافي العالم الأكبر من معاني الجمال والجلال . يقول ابن عربي من موشحة :

---

(١) ابن السيد البطليوسي . دكتور . صاحب أبو جناح ص ١٠٠، وقلائد العقيان ص ١٩٦ ، والمقري ١٩٤٢م . أزهار الرياض في أخبار عياض . ضبطه ، وحققه ، وعلق عليه مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبياري ، وعبد الحفيظ شلبي . القاهرة . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ ١١٧/٣ . ووردت في أزهار الرياض لفظة (جوامد) هكذا (بوائد) .

(٢) لهذا المذهب أصول كثيرة وعديدة في الفلسفة المشائية،والفلسفة الأفلاطونية الحديثة، والغنوصية المسيحية ، والصوفية الهندية ، والرواقية . وأفاد كذلك من مصطلحات الإسماعيلية الباطنية ، وإخوان الصفاء ، والقرامطة ، والمتصوفة المسلمين المتقدمين على ابن عربي (انظر مقدمة : فصوص الحكم . أبو العلا عفيفي . دار إحياء الكتب العربية . عيسى البابي الحلبي وشركاه . القاهرة ، ١٩٤٦م ، ص ٧ . ومحمود . دكتور عبد القادر . الفلسفة الصوفية في الإسلام ص ٤٩٧ . ويرى بلاثيوس أن نظرية وحدة الوجود تعود في جذورها إلى ابن مسرّة الجبلي أما ابن عربي فطوّر هذا المذهب ، وصاغه الصياغة المتكاملة النهائية . انظر بلاثيوس . آسين ، ابن عربي حياته ومذهبه . ترجمه عن الإسبانية عبد الرحمن بدوي . مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة، ١٩٦٥م، ص ٩٦ .

الحـــــــــقّ صـــــــــوّرني في كـــــــــلِّ صـــــــــورَهْ
كمثـــــــــلِ بســـــــــملةٍ في كـــــــــلّ ســـــــــورَهْ
أقـــــــــامني عنـــــــــدَ حشْـــــــــرِ النـــــــــاسِ ســـــــــورَهْ
بجنّـــــــــة وبنـــــــــارٍ علـــــى اختـــــلافِ الـــــذراري
فأنـــــــا بـــــــينَ حَـــــــيْ وميّـــــــتٍ في تبـــــــارِ [1]

ويفصح الششتري عن تيار الوحدة المطلقة الذي اتخذه مذهباً له ، وهو وحدة الوجود في صورته المغالية . فقد حظيت قصيدته النونية[*] بعناية الدارسين لأنها تلخص مذهبه ، ومذهب أتباع الوحدة المطلقة في نفي الاثنينية أو الغيرية في الكون ، وتقرير الوحدة المطلقة ، ورفض كل ماسوى الحق ، وعدّ الكون وما فيه محض أوهام ، والزهد في نعيم الجنة ، وتجاوزه إلى معرفة الحق تعالى ودوام شهوده . يقول فيها :

أرى طالبًا منّـــا الزيـــادةَ لاالحُسْـــنى بفكرٍ رمى سهماً فعدّى بـــه عَـــدْنَا[2]
فطالبُنَـــا مطلوبُنـــا مِـــنْ وجودِنَـــا نغيبُ به عنّا لَدَى الصَّعقِ إذْ عَنّـــا[3]
ولم نُلْفِ كُنـــهَ الكـــونِ إلا توهُّمـــاً وليس بشيءٍ ثابـــتٍ هكـــذا الفَيْنَـــا
فرفضُ السِّوى فـــرضٌ علينـــا لأنّنـــا بـــملّةِ مَحْوِ الشركِ والشكّ قَدْ دنّـــا

---

(١) ديوان الموشحات الأندلسية ٢/٢٥٢ .

(*) انظر : القصيدة في لسان الدين بن الخطيب . روضة التعريف بالحب الشريف . عارضه بأصوله وعلق حواشيه وقدم له محمد الكتاني ط ١ . بيروت ، ١٩٧١م ، ٢/٦٠٩-٦١٨ .

(٢) عدن : يقصد بها جنة عدن ؛ لأن مطلب الصوفي يتجاوز النعيم الأخروي (الجنان) إلى معرفة الله ودوام شهوده . ويشير إلى قوله تعالى ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾.

(٣) أي أن الطالب منّا تلك الزيادة التي هي المعرفة هو عين مطلوبنا ، إذ ليس الأمر خارجاً عن ذواتنا عند تحقق الفناء وهو الصعق . فالطالب هو المطلوب ولا اثنينية ولا غيرية عند المحقق .

ولكنَّــه كُيــفَ الســبيلُ لرفضــهِ ورافضُهُ المرفوضُ نحنُ ومــا كُنّــا[1]

ويـذهب الششـتري إلى أن العقـل قاصـر عـن إدراك الحـق ؛ لأنـه يقضـي بالأوهام ، ويشتّت المعاني ، فيعيـق ارتقـاء المـرء وسمـوّه ، ويقيّـده في الـدرك الأسفل ؛ لأنه بأوهامه يتخيـل الاثنينيـة في الكـون (موجـد وموجـود) مـع أنـه لاموجود إلا الله . وعلى ذلك كـان سـبيل التصـوف سـبيلَ الـذوق والسـلوك ، لاسبيلَ العقل . يقول :

تقيّدْتَ بالأوهــامِ لــمّا تــداخَلَتْ عليكَ ونورُ العقلِ أورثَــكَ الســجنَا
يبطِّئُنَــا عنــدَ الصــعودِ لأنّــه يودُّ لو انّــا للصــعيدِ قــد اخْلَــدْنَا
يفــرّقُ مجمــوعَ القضــيةِ ظــاهراً ويجمــعُ فرقــاً مــن تداخلــه فُزْنــا
وعدّدَ شــيئاً لم يكــنْ غــيرَ واحــدٍ بألفاظِ أســماءٍ بــها شتّتَ المعــنى[2]

وحين يفنى المحب الصوفي في ذات الله الحق تنكشف لـه الأسـرار ويـزول الستر ، فيصـل الششـتري إلى جـوهر مذهبـه في الوحـدة المطلقـة . يقـول في موضع آخر :

فأنتَ أنتَ بلْ أنتَ أنتَ هــو الــذي يقول أنَــا والــوهمُ مــاجرّ للغــيرِ
ومَنْ لايرى غــيراً فكيــفَ افتقــارُهُ وقدْ حقّ للتسليمِ والــنّظمِ والنشــرِ[3]

---

(١) يوضح الإشكال الذي يصنعه البيت السابق . وهو أن (رفـض السـوى فـرض علينـا) إذ كيف يرفض السوى مَن هو في ذاته سوى ، وكل سوى عـدم محـض ، فـالرافض هـو المرفـوض نفسـه . انظـر : روضـة التعريـف ٦٠٩/٢ هـوامش (١٤٣٣) و(١٤٣٤) و(١٤٣٦) .

(٢) روضة التعريف ٦١٠/٢، ٦١١- ٦١٣ ، وديوان الششتري ٤٧٢-٤٧٤ . وفي الروضة (يثبّطنا) بدلاً من (يبطّئنا) .

(٣) ديوانـه ص ٤٤ .

وكان أبو عبد الله محمد بن علي بن أحلى (- ٦٤٥هـ) من المشتغلين بعلم الكلام ، وكان يؤخذ عنه ، وله فيه تواليف . وهو من أصحاب الوحدة المطلقة « وله أشعار بمقصده شاهدة ، وعلى معتقده متواردة » كقوله :

المـــرءُ يعلـــمُ بالضـــرورةِ نفسَـــهُ والثابـــتُ الموجـــودُ حـــيٌّ واحِـــدُ
والخلـــقُ بـــين حقيقـــةٍ ومقـــدّرٍ تقضـــي عليـــهِ بالافتقـــارِ شـــواهدُ
فانظرْ بعقلِكَ إنْ بدَا لـــكَ شـــرحُ ذا ك فأنتَ حبْـــرٌ مســـتقيمٌ راشـــدُ (١)

وأفصح لسان الدين بن الخطيب في عصر غرناطة عن بعض المذاهب الفلسفية الصوفية التي شهدتها الأندلس خلال تاريخها ، ولا سيما المعتدلة منها ، وآثرها هو ، أو اتخذها مذهباً له ، فهو يردد المذهب الصوفي في عدّه الإنسان عالماً أصغر حمل صفات العالم الأكبر ، فكان جسده من عالم المادة ، وإشراقه ونوره من عالم الروح ، فكان بذلك نسخة من هذا العالم الأكبر . يقول:

أنا نسخةُ الأكـــوانِ أُدْمـــجَ خطُّهـــا فسرٌّ ذوي التحقيقِ في طـــيّ أوراقـــي
فمِنْ عالمِ الأشـــباحِ ليلـــي وظلمـــتي ومنْ عالمِ الأرواحِ نوري وإشـــراقي (٢)

وإذ يخوض لسان الدين بن الخطيب في معين الحب الإلهي نراه ينكر الحب البشري الفاني ؛ لأنه يورث صاحبه العنت والعذاب . ذلك أنه يقيّد النفس بالجسد الذي تتحرق هي على مفارقته عروجاً إلى سماء الجوهر السامي ، كما أن هذا الحب البشري يورثها الندم عليه حين تفارق الجسد . يقول في أبيات وفق فيها إلى مزج الفكر العميق بالفن المتوهج مزجاً فريداً ، وختمها بإدراك الروح عالمها الأوّل عندما تفنى عن شهودها :

---

(١) الحلة السيراء ٣١٦/٢ .

(٢) ديوانه ص ٧١٦ ، وروضة التعريف بالحب الشريف . لسان الدين بن الخطيب . عارضه بأصوله وعلق حواشيه وقدّم له محمد الكتاني . ط ١ ــ بيروت ، ١٩٧٠م ، ١٥٦/٢ .

أعشّاقَ غيرِ الواحدِ الأحـدِ البـاقي ... جنونُكُمُ واللهِ أعْيَـا علـى الراقـي
جننتُمْ بـما يفنى وتبقـى مضاضـةٌ ... تعذّبُ بعدَ الـبينِ مهجـةَ مشـتاقِ
وتـربطُ بالأجسـامِ نفسًـا حياتُهـا ... مباينةُ الأجسـامِ بـالجوهرِ الراقـي
كأنّي بـها من بعدِ ماكُشِفَ الغَطَـا ... صـريعةَ أحـزانٍ لذيعـةَ أشـواقِ
وليس لـها بعـدَ التفـرقِ حيلـةٌ ... سوى نـدمٍ يـذري مـدامعَ آمـاقِ
فمـا هـوَ إلا أنْ تَحُـطَّ رحالَهـا ... بـمثـوى التجلّي والشهودِ بإطلاقِ
وتفنى إذا ماشاهدت عـن شـهودها ... وقد فني الفاني وقـد بقـي البـاقي
هنالك تلقى العيشَ تصـفو ظلالـهُ ... وتنعمُ من عـينِ الحيـاةِ برقـراق[1]

وسرت هذه المذاهب الفلسفية الصوفية في الزجل الأندلسي ، ولا سيما على يد الششتري الذي كان أبرز من نظم أزجالاً في التصوف ، وعبّر فيها عن معاني وحدة الوجود ، والاتحاد بالحق سبحانه على نحو سائغ طليق . يقول :

أنـا أنـتَ ... إذا فهمـتَ المعـاني
لـس نغيـب عنّـك ... إذا دريـتْ كِـفْ ترانـي
أنـا وحـدي ... لَـسْ ثَـمَّ حَـدْ أمـامي
وسـلامـي ... نُقْريْـه أنـا لـي سـلامي
واش مانَسْـمَعْ ... مانسـمعْ إلا كلامـي
أنـا ننطـق ... مـن خلـف هـذي الأوانـي
وأنـا دايـمْ ... كـلُّ الأوان أواني [2]

(١) ديوانه ٢/٧٠٣-٧٠٥ . وورد في الديوان (وتبقى مضاضةٌ) ولعل الأصواب (ويُبقي مضاضة) .
(٢) ديوانه ١٦١، ١٦٢ .

خاتمة

وهكذا أطلت في أشعار الأندلسيين آثار النهوض الثقافي الذي شهدته الأندلس خلال تاريخها الطويل ، وأفصحت هذه الآثار عن التيار الشعري الذي ينتمي إليه شعراؤها ، وبرزت هذه الآثار بروزاً فنيًّا بديعاً حين كان الشاعر يستلهمها في صياغة المعنى الشعري ، فيمزج المصطلح العلمي ، أو المعنى الثقافي بالصنعة الفنية الرشيقة ، أو يسرّبه بمهارة في أتون العاطفة المتوهجة . لكنها كانت تأتي سمجة باردة إذ يتكلف إقحامها على المعنى المراد ، واجتلابها فيه . أما الشعر الفلسفي فلم يزدهر في الأندلس لبواعث عديدة تتمثل في الموقف الأندلسي من علوم الفلسفة ، وفي الذوق الأدبي الأندلسي ، والظروف السياسية الفريدة . ولم يتسم هذا الشعر الفلسفي ـ في عمومه ـ بالتعمق في قضايا الحياة ، والموت ، والكون ، والإنسان ، والنظر إليها بمنظار فلسفي عقلي ، أو مزج الفكر الفلسفي بالبراعة الفنية على نحو ماتمّ في المشرق فيما خلا الشعر الفلسفي الصوفي الذي بلغ ذروة من ذرا توقده في الأندلس حين استلهم النظريات الصوفية التي صاغها أقطاب التصوف الأندلسيين ، وأبدعوا في التعبير عنها تعبيراً فنيًّا بارعًا .

* * *